الطريق إلى القمة

تأليف

د. فتيحة عطية

دار الكنزي للنشر والتوزيع

دار الكنزي للنشر والتوزيع



المدير العام

محمد صلاح

إشراف عام

إيناس الدسوقي

الطبعة الأولى
الكتاب : الطريق إلى القمة
تأليف : د. فتيحة عطية
مصمم الغلاف : محمد علي
إخراج : أحمد عبد الرحمن
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ٢١١١٨ / ٢٠١٧
الترقيم الدولي : 1 - 58 - 6599 - 977 - 978

Alkanzy for Publishing and Distribution
+01003897918
Alkanzy.co@gmail.com
Facebook.com/Alkanzy.com

إهداء

إلى كل غيور على هذه الأمة.

المقدمة

إن الوضعَ الحالي للأمة العربية الإسلامية على مختلف أصعدتها - سواء الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية - بعيدٌ كل البعد عمّا خلقت من أجله خير أمة أخرجت للناس.

على الصعيد الفكري تتخبط هذه الأمة بين الجمود والتراجع، الذي أصبح يصبغ جلّ أطيافها، رغم وجود بعض الصّحوات التي تحاول أن تكسر هذا الجدار والتقوقع، لكنها تصطدم بالظروف المفروضة على المجتمعات -خاصة السياسية منها- فتحدّ من استمرارها..

إن الواقع المأسوي لأمتنا يحتّم علينا - كأفراد- بذل على ما في وسعنا لإخراجها من عنق الزجاج، رغم كل الظروف والقيود المحيطة بنا، وليس بضرورة أن نكونَ نحن المحرّك لطول الأمد، نحن أبناء هذا الجيل ملزمون على الأقلّ برسم الخطط ووضع الاستراتجيات؛ للنهوض بهذه الأمة من جديد، وإعادتها إلى الرِّيادة كما كانت عليه.

ولا يتمّ هذا النهوض إلا بتضافر جهود أبناء الأمة جميعًا، وتكون نقطة البداية داخل كل الفرد نفســـه؛ لأنَّ التغيير يبدأ من النفس بالدرجة الأولى، وينتقل إلى ما حولها، وذلك بتأثيرها في مجتمعها.

نحاول بهذا العمل أن نرســـم بعضًا من هذه المسارات؛ لتكون دربًا نمشي عليه، ونشـــقّ طرقات بخطى ثابتة، لنصل إلى ما نصبو إليه: خير أمة أخرجت للناس ..

الفصل الأول

خطوات نحو الهدف

مقدمة

إن واقعنا العربي الإسلامي في حالة يرثى لها على كافة الأصعدة؛ لهذا من الضروري تشخيص الداء حتى نضع له العلاج الصحيح.

في هذا الجزء نحاول أن نرسم الخطوات ثابتة التي يجب أن نمشي عليها للوصول إلى ما نصبو إليه.

التغيير

التغيير سنة كونية وأمر فطري في هذه الحياة الدنيا، إذ أن حياة الإنسان قائمة على مبدأ التغيير، فالتغيير دليل على الطموح والتطلع والرغبة في تحقيق الأفضل والأجمل والأكمل، وتحقيق الأهداف والغايات المنشودة، وما دمنا لم نبلغ هذه الدرجة، فإن علينا أن نحرص على التغيير الإيجابي المطلوب؛ لنقترب قدر المستطاع منه.

أما المُبررات التي من أجلها يتم التغيير فكثيرة جدًّا، وتختلف باختلاف الحالات والظروف والزمان والمكان، إلا أنَّ من أبرزها ما نُلاحظه ونراه ونسمعه ونتفق جميعًا عليه، ويتمثل في أنَّنا نعلم أنَّ هناك الكثير من الطاقات البشرية (المُهدرة)، التي لم يُفد منها أصحابُها

ولا المجتمع من حولهم؛ لأنها طاقـــات مُعطلة وقدرات غير مُفعّلة، وخير دليلٍ على ذلك تلك المواهب المدفونة عند الكثيرين في مختلف مجـــالات الحياة، وتلك الأوقات الضائعة التي نهدرها جميعًا -إلا ما ندر- على مدار اليوم والليلة فيما لا فائدة فيه ولا نفع منه، سواء أكان ذلك من الأقوال أو الأفعال، إضافة إلى مشكلة الخضوع والاستسلام لمختلف لعادات والتقاليد الخاطئة في المجتمع، وعدم بذل أي محاولة إيجابية لتغييرهـــا، أو تعديلها، أو تصحيحهـــا، أو التخلص منها.

فرؤيتنا للتغيير يمكن أن تكون معقدة ومضخمة، ويمكن أن تكون واضحة وميسّرة، وكي ينجحَ هذا التغير قد يحتاجُ إلى الأمور التالية:

- إرادة صلبة وعزيمة ماضية.
- رؤية واضحة للوضعية الجديدة التي نتطلع إليها.
- ظروف تساعدنا على النجاح في بلوغ ما نصبو إليه.
- وعي جيد بالتكاليف الباهظة، والأعباء الكبيرة التي ســـنحملها عند اختيارنا للجمود وإبقاء كل شـــيء على حاله.
- معرفة مسوغات سلوكنا السلبي الذي نودُّ التخلص منه.
- معرفة المنافع التي تعود علينا من ورائه.

نحن بشـــر نصيب ونخطئ، ومع كل خطأ نتعلم شـــيئًا جديدًا، وســـوف تنقضي حيـــاةُ كلِّ واحدٍ منا وهو يلوم نفسَـــه على بعض أفعاله، المشـــكلة هي أن ننظرَ إلى أخطائِنا على أنَّها ناتجةٌ من قصورٍ بنيوي في العقل أو النفس.

وهناك أيضًا من يريدُ استعجالَ النتائج يقولُ: عملْنا وعملْنا ولم نـــرَ نتيجةً بعد، فكأنَّه يريدُ أن يعمـــلً اليومَ ويحصد نتائجَ عملِه في الغد، ولكنَّ سننَ اللهِ في الكونِ غير ذلك، فقد أرسى اللهُ الحياةَ على الارتقاء والتدرّج، فلا الشـــمس تشرق فجأةً، ولا النبتة تظهر فجأة.

من المهم أن ندركَ أنَّ الإبـــداع لا يكون بتفويت المصالح من أجل المبـــادئ، إنَّما يكون بتحقيق المصالح في إطار المبـــادئ، وإنَّ الذين لا يفشلون أبدًا هم أولئك المحبطون والقاعدون عن طلب المعالي، أما العاملون فإنهم تارة ينجحون وتارة يخفقون، هذا هو الشيء الطبيعي.

يكـــون لحياتنا معنى حين نحدد بدقـــة الأهداف التي نعيش من أجلهـــا، وعلينا أن ندرك جيدًا أنه لا يوجد هناك تغيير نحو الأفضل دون عناءٍ أو مشـــقةٍ، وهنا تكمنُ اللذةُ والاستمتاعُ بالانتصارِ، وهذا يعني أنَّ علينا أن نُردد العبارة الشـــهيرة: «لا شيء مستحيل».

الإقلاع الحضاري عوائق ومقومات

التآكل الذاتي الذي يصيبُ مجتمعَنا العربيَّ في هويته الإسلامية، ويظهر جليًّا بعدَ ثورات الربيع العربي والتي أســـقطت القناع، حيثُ لم يعد هناك إمكانية الاســـتمرار في الاختباء وراء الأنظمة العربية المســـتبدّة، أو الاســـتعمار المتمثل بالتبعية والرجعيـــة لتبرير حالة الضعف العربي التي اســـتمرت عبر مراحل طويلة.

تعـــدّدت الجهود الفكرية في الواقع العربي والإســـلامي الحديث والمعاصر، والتي راحت تبحث عن مخـــرج للإصلاح والتغيير لواقعنا

الحضاري، وذلك لإخراجه من وطـــأة الهزيمة الحضارية التي مُني بها المســـلم المعاصر، نتيجة لعوامل داخلية وخارجية.

فمثـــلاً نجـــد أن (مالك بن نبي) - رحمـــة الله عليه - في كتبه التي صنفت تحت: «مشـــكلات الحضارة» حيث يرى أن المشـــكلة التي استقطبت تفكيره واهتمامه أكثر من ربع قرن هي مشكلة الحضارة.

قبل تحقيق النهوض الحضاري للعالم العربي والإســـلامي، وجب أولًا تســـليط الضوء على أســـباب تراجعه -أو بالأحـــرى معوقاته الأساسية- بالدراسة والتحليل، وذلك لتشخيص الداء، ولتنير درب الإقلاع من جديد، وهذا يتطلب إســـتراتيجية مدروسة، والتي تمكن الانتقال من مرحلة الحالية، وتدارك جوانب القصور؛ لنخطو الخطوة الأولى على هذا الـــدرب، وصولًا إلى المنحنى الصاعد للحضارة.

معوّقات الإقلاع الحضاري

يقول (مالك بـــن نبي): «فنحن مضطـــرون أحيانًا إلى أن نفكر في هذا النقص الذي أصاب الإنســـان، فقعد به عن ملاحقة توقيت التاريخ، وأن نفكر في سد هذا النقص». من هذا المنطلق بدأ بدراسة تحليلية نقدية لأهداف وإنجازات مجتمعه الإســـلامي، في محاولاته للنهوض الحضاري، بهدف معرفة أســـباب فشل هذه المحاولات، من أجل القيام بدراســـة تعتمد على التحليـــل التجزيئي المنطقي، ثم تقديم هذه الدراســـات والأفكار، كخلاصة يمكن الاستفادة منها في الواقع.

ضرورة الإصلاح والتغير وعــدم الثبات وتراجع تطور الحضارات، هذا ما يُجْمِعُ عليه المفكرون، حيث تتلخصُ أسبابُ انهيار أي حضارة لديهم: إما بســبب حتمية تبدل وســائل الإنتــاج، أو ضعف القوة الخلاقة، وبالتالي يتراجع الأكثرية عن دعم الأقلية المســيطرة، ما نجم عنه الانشــقاقات والانقسامات وضياع الوحدة.

ولكنّا نلاحظ أمرين :

أولًا: هو أن الإســلام كمقوم لإحياء الحضارة الإسلامية عبر تراثها ما زال قائما حتى اللحظة، لكن دون تفعيله في ســلوكيتنا.

وثانيًا: أن تراجع الحضارة العربية الإسلامية نتيجة أسباب خارجية، من أهمها: الاســتعمار أو الحمــلات الصليبية، وإن الاحتلال والاحتكاك مع الغرب، والذي كشف النقاب عن مدى التخلف العربي مقارنة بالغرب، والذي هو ناجم بالأصل لأسباب داخلية.

تراجع العقل العربي عن إنتاج حضاري وعجزه عن مجاراة الآخرين من الثقافات التي يعتبرها مثلًا أعلى وبتقليدها أخذًا القشور. هذا يظهر جليًّا في مدى تأثر مسلمي الأندلس بالأمم المسيحية في أوروبا في نمط حياتهم، بسبب استسلام العرب لحقيقة أن الأوربيين قد سيطروا عليهم، فهذه الأمم المغلوبة أو المقهورة تقع فريسةً للخضوع التام والتبعية.

من جهة أخرى فإنَّ محاولاتِ الإصلاح الديني التي قامت على مبدأ تغيير القوالب وعلى باب فتح الاجتهاد قد فشلت، وذلك على الرغم من محاولات النخبة الدينية في الفكر؛ لأن هذه المحاولات حســرت

رغبة التغيير في أيدي النخبة، وليس كونها ضرورة وحتمية المجتمع.

تنحصر أسباب تخلف العالم الإسلامي في القابلية للاستعمار، وهي من المشكلات الرئيسية التي تواجه المجتمع الإسلامي، والتي ترجع بحدٍّ ذاتها إلى عدة أسباب؛ منها: الأفكار الميتة والمميتة التي خلفتها الحضارة والأفكار الميتة نتاج إرثنا الاجتماعي تولّد قابلية الاستعمار، الأفكار المميتة مستعارة من الغرب تولّد الاستعمار وعدم استخدام المسلم ما تحت يده من وسائل استخدامًا مؤثرًا، وبذل أقصى الجهد ليرفع من مستوى حياته؛ مما نتج عنه شلل النشاط الحضاري.

الاستبداد السياسي الذي يؤدي إلى الجهل، وإلى فساد الأخلاق، وانحراف رجال الدين عن جوهر الدين، وهذا ما يعبِّر عن الواقع الحالي للوطن العربي، إذ إن الإسلام السياسي في دول الربيع العربي خاصة أدى إلى تعميق الانقسامات العرقية والدينية والطائفية والمذهبية في تلك المجتمعات، في العراق ولبنان وسوريا؛ ممَّا جعل الهوية العربية تذوب داخل الهويات الجزئية في تلك البلدان، بحيث أصبح كل فريق يبحث عن ذاته في مواجهة التطرف وسياسة رفض الآخر، والاستحواذ على الغير الذي يمارسها أصحاب الإسلام السياسي.

من أسباب التراجع: استهداف الاستعمار الغربي للإسلام والإسلام السياسي، وذلك لإدراكهم أهميته، وبالتالي خوفهم من سيطرة مبادئ القرآن، ولعلمهم أن السيطرة على العالم العربي والإسلامي لن تكون سهلة بوجود الإسلام، وهذا ما يؤيده (مصطفى محمود) في كتابه «الإسلام السياسي والمعركة القادمة» حيث يقول: «لكنَّ خصومتَهم وعداءَهم هي للإسلام الآخر، الإسلام الذي

ينازعُهم السلطةَ في توجيه العالم وبنائه على مثاليات وقيم أخرى، الإسلام الذي ينازعهم الدنيا ويطلب لنفسه موقع قدم في حركة الحياة، الإسلام الذي يريد أن يشقَّ شارعًا ثقافيًّا آخرَ ويرسي قيمًا أخرى في التعامل، ونماذج أخرى من الفن والفكر، الإسلام الذي يريد أن ينهض بالعلم والاختراع والتكنولوجيا، ولكن لغايات أخرى غير التسلط والغزو والعدوان والسيطرة الإسلام السياسي الإسلام الذي يتجاوز الإصلاح الفردي إلى الإصلاح الاجتماعي والإصلاح الحضاري والتغيير الكوني هنا، لا مساومة ولا هامش سماح، وإنما حرب ضروس هنا سوف يطلق الكل عليك الرصاص».

التراجع الفكري الذي أدى إلى الانقطاع التاريخي للحضارة العربية، واستمرار الآخرين بسبب الاستبداد والانغلاق الناجم عن الاستبداد الاستعماري الذي عطل العلم، وكرس المفاهيم الاجتماعية والقبلية المتخلفة، أي: حالة الجمود والتكرار، أما الأمر الأخر: انتقال البنية الاجتماعية إلى تطور تبعي بالتطور الامبريالي للرأسمالية، فكان على الامبريالية أن تستخدم تراث الأمم لاستحضار رسالتها، فتحول تراث هذه الأمم إلى سبب في سيطرة الامبريالية.

مقومات الإقلاع الحضاري

تتطلع النفوس في العالم الإسلامي للنهضة، ولكن بسبب الهوّة الكبيرة بين قيم الفكر الإسلامي، وواقع المجتمع الإسلامي، فإن كثيرًا من القيم خضعت لتأثيرات غربية منافية لروح التوجه في هذه البلاد.

فالنهضة ليست نقل الأســاليب والطرق الأجنبية لمجرد نجاحها في بلد المنشأ، والسير على نهجها في بلادنا الإسلامية؛ لأن هذا يعتبر ضلالًا عن الطريق ليس بعده ضلال، فلكلٍّ مجتمع أدواته وأســاليبه الــتي يعتمد عليها في بناء حضارتــه، فالحلول الفنية ينبغي إذن أن تتكيف مع نفســية البلد الذي تطبق فيه، ومع مرحلة تطوره.

مفهوم التغيير

لبناء حضارة متينة على قواعد راســخة، وجب أولًا تغيير الفرد نفسه، والذي يؤثر في الواقع الاجتماعي، ولتحقيق التغيير لابدّ من تغييرين: تغيير القوم، كما لابد من أســبقية التغيير الذي يحدثه القــوم، إلَّا أن بين هذين التغييرين ترابطًــا، فإذا وقع التغيير الذي يخلقــه الله، دلَّ ذلك قطعًا على أن التغيير الذي يقوم به القوم، قد ســبق أن حدث؛ لأنَّ الله تعالى اشترط هذه الأسبقية، ولكن علينا أنَّ ننتبَّه إلى أن هــذا التعهد إنما هو مجال القوم، لا في مجال الفرد.

وممَّا يرســخ هذا القول هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِــهِمْ﴾ [الرعد/١١]. فالآية هنا تشــمل كلَّ النــاس؛ لأنها جاءت بكلمة (قــوم) دون تخصيص لقومٍ معينين.

فالمشــكلة هي مشكلة فردٍ يعيش في مجتمع، لا مشكلة دين، وهي مشكلة عامة في جميع البلاد الإسلامية، فلكي تبدأَ عجلةُ التغيير في الدوران لابدَّ من معرفة سنن التغيير لما بالأنفس، وكذلك معرفة مــا ينبغي أن نغــيره بالإضافة إلى معرفة الأشــخاص الذين يجب

محاولة تغييرهم باختلاف شخصياتهم وبيئاتهم؛ لأنهم يشتركون في أصل البلاء.

الحضارة يجب أن تشمل مقومين أساسين:

أولهما: التعليم، بشرط أن يكون مبنيًّا على أساس الحاجات، وليس المفروض في قوالب غير قابلة للتطبيق، وتؤدي إلى تعجيز الذات والعقل بدل من استنهاضهما.

والقضية الثانية: مرتبطة بالتشريعات الأخلاقية اللازمة لاستمرار الذات الإنسانية واحترامها.

من التكديس إلى البناء:

إن العالم الإسلامي بدأَ يتَّجهُ إلى جمع الأكوان من المنتجات الحضارية أكثر من اتجاهه إلى بناء حضارة، وهو ما يسمى بالتكديس، فينتهي بنا الأمر إلى الحضارة الشيئية. أي: أن التكديس لا يعني البناء؛ لأن البناء وحده هو الذي يأتي بالحضارة التي تكوّن منتجاتها وليست المنتجات هي التي تكوّن الحضارة.

وقد يتساءل شخص: ما الذي نأخذه من الحضارة الغربية؟

وللإجابة على ذلك علينا أن نأخذ من الحضارة الغربية الأدوات التي تلزم في بناء حضارتنا، حتى يأتي يوم نستطيع فيه الاستغناء عنها بمنتجاتنا.

من جهة أخرى يعتمـــدُ بعضُ المفكرين الإســـلاميين على إبراز عوامل القوة الحضارية في الإسلام من خلال التركيز على السلبيات في المجتمعـــات الغربية، الـــتي أهملت الأخلاق مـــن وجهة نظرهم، وانغمست في ملذات الحياة.

دور الأفكار في البناء الحضاري

الأفـــكار لها دور كبير وهام في التأثير على الفرد والمجتمع وبناء الحضـــارات، فالفكر ركيزة هامة في حياة الشـــعوب، وهو دليل على حيويتهـــا وتقدمها، أو على العكس دليل على جمودها وتخلفها؛ لأن نتاج العقل البشـــري الذي خلقه الله لهذه الغاية، فالنجاح الفكري وســـيلة للقضاء على الأفكار الميتة؛ لأن تصفية الأفكار الميتة وتنقية الأفكار المميتة يعدان الأســـاس الأول لأية نهضة حقة.

وكذلـــك فإن انحراف الأفـــكار عن مجراها بالنســـبة للأفكار الجوهرية يبـــين لنا مقدار عـــدم فعالية المجتمع؛ ممـــا يؤدي إلى الزيـــغ من جيل إلى جيل عن طريـــق الامتصاص، وتعتبر الأفكار في هـــذه الحالة هي الجراثيم التي تكـــون كالعدوى الاجتماعية لنقل الأمراض، فينعكس المرض على المجتمع، وأحيانًا قد يحدث انعكاس الفكرة المردودة فيعود ذلك بالخير بســـبب اكتشـــاف بطلانها.

ولذلك فالاســـتعمار دائمًا يحاول القضـــاء على الأفكار البناءة التي تؤدي إلى وعي الشعب بمخاطر وجود الاستعمار، ممَّا يهدد هذا الكيان الاستعماري.

إنَّ استنهاض الحضارة العربية لن يتحقق إلا بإطلاق العقل العربي من خلال العلم والتعليم، من أجل الوصول إلى مقومات حضارية تضمن استمرارها، ومن أهمها البعد عن استجلاب قوالب جاهزة، والتي منها العيش في التراث القديم القائل برفض التغيير في المقال الديني، ووقف محاربة كل محاولات تحرير الفكر الديني.

إن الرافضين للفكر الديني بشكل مطلق يكررون أخطاء الداعين للعيش في التراث، وذلك لأن الإسلام بكل ما فيه من تفاصيل كان جزءًا مؤسسًا من الحضارة، وليس هامشيًّا كما هو مع الديانات الأخرى. هذا من جهة، ومن جهة أخرى: فإن الإسلام كان شعارًا لبعض الإمبراطوريات التي مرَّت على الحضارة، ومنها الإمبراطورية العثمانية، وإن كان عليها الكثير من الملاحظات إلا إنها كانت تمارس المدنية في بعض فترات نشأتها، ممَّا يعني أن الإشكالية لم تكن بالدين بقدر ما كانت بمن يستخدمونه، ولو أبقينا الدين بعيدًا عن التنافر السياسي لتحققت المصالحة بين الدين والدولة المدنية.

مفهوم الفعالية

الفعالية تعدُّ إحدى خصائص العقل الغربي، والعقل الغربي يخضع لمبدأ الفعالية التي تكون على المستوى الفردي والاجتماعي، فالفعالية على المستوى الاجتماعي تعني القدرة على توليد ديناميكا اجتماعية، وذلك بالدخول في تخطيط منهجي لا يحتوي خليطًا من الأفكار المتناقضة.

إنَّ ما يفصل المجتمعات في هذا القرن هو مدى فعاليتها التي تتفاوت درجتها من مجتمع إلى آخر، فأصبح عنصرًا أساسيًّا في فلسفة العصر التي تعني بتقدير الكم، حتى أن التقدم أو التأخر الحضاري يمكن أن يلاحظه الإنسان من خلال ملاحظة عامل الفعالية، أي أنه بوسعنا أن ندرس حضارة ما، بملاحظة الطريقة التي يتبعها الإنسان ليتفاعل مع بيئته.

ليست المشكلة أن نعلِّم المسلم عقيدة هو يملكها، وإنما المهم أن نرد إلى هذه العقيدة فاعليتها وقوتها الإيجابية وتأثيرها الاجتماعي، فصناعة حضارة بقدر ما تحتاج إلى أفكار سليمة، فإنها تحتاج إلى فعالية في إنجازها، والأمم اليوم في زمن العولمة والمادية الطاغية على اهتمامات الناس تقاس درجة تحضرها بقدر ما تملك من فعالية في أدائها.

نجحَ العرب والمسلمون في بناء حضارة من عناصر ومصادر متعددة:

أولها: ما جاء به الإسلام من قيم ومبادئ.

وثانيها: تراث العرب القديم وقيمه الايجابية.

وثالثه: تراث الشرق القديم الذي كان منبعًا للحضارة.

فالإسلام جاء مكمّلًا للحضارات التي سبقته، وتراجع الحضارة العربية جاء لأسباب موضوعية بحتة مرتبطة جزئيًّا بعدم مقدرة الحضارة الإسلامية العربية بالقيام بدورها في مواجهة التحديات ومتطلبات أعباء الحضارة.

الفعالية

بقدر ما تحتاجه صناعة التاريخ من أفكار سـليمة، فإنها تحتاج إلى فعاليـة في إنجازها، والأمم اليوم في زمن العولمة والمادية الطاغية علـى اهتمامات الناس تُقاس درجة تحضّرهـا بقدر ما تملك من فعالية في أدائها.

والفعالية إذا أردنا أن نتفهم حقيقتها في واقعنا اليوم، وخاصة في المستوى الاجتماعي، فإنَّها لا تكاد تحيد عن معنى القدرة على توليد ديناميكا اجتماعية، وذلك من خـلال تفهّم معادلتنا الاجتماعية، وتحديد متغيّراتها، والقيام بأداء منهجي متناسق لا يحتوي خليطًا من الأفكار المتناقضة.

العامل النفسـي للفعاليـة هو الذي يناط به توجيه النشـاط والطاقات الاجتماعية، والطاقـات الاجتماعية يُبحث عن مفهومها في حقيقـة الواقع الاجتماعـي، وإذا حُلّلـت إلى عناصرها الأولية فإنهـا تنحصر في ثلاثة: اليد، والقلـب، والعقل؛ لأن كل الطاقات الاجتماعية تنطلق منها، والعملية الاجتماعية نفسُها لا تخرج عن هذه العناصر، فكلُّ طاقـة اجتماعية تصدر حتمًا من دوافع القلب، ومن مبررات العقل وتوجهاته، ومن حركات الأعضاء، فكلُّ نشـاط اجتماعي مركب من هذه العناصر، والفعالية تكون أقوى في الوسط الذي ينتج أقوى الدوافع، وأقوم التوجيهات، وأنشـط الحركات.

هذا العامل النفسي هو ما يسمى: (التوتر)، والفعالية نتاج حالة خاصة مـن التوتر، توتر في الضمير، أي: توتـر أخلاقي واقتصادي

وعلمي ونفسي، وهو حالة نفسية اجتماعية دلّ التاريخ على أنها تنشأ في ظروف معينة، تكون فيها المبررات التي تكوِّن الدوافع الإنسانية التي تدفع النشــاط إلى أعلى قمته، ولو نظرنا إلى واقعنا لنرى أن الرجل المســلم -وبكلِّ أسف- ليس ذا نشاط وعزم وحـــــركة دائبة، والذي يــــأمرُه القرآن بالقصد والانضباط: ﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا﴾ [لقمان/١٨]، ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ [لقمان/ ١٩]، وليس ذلك ضربًا من الافتراض، بل هو شهادة.

الفكرة الإســلامية لا تحتاج أن نبرهنَ على صدقِها نظريًا، وإنما من خــلال صياغة الحياة بهــا كما كان يفعل الســلف، وإظهار فعاليتها في الواقع، أي: ينبغي العودة إلى روح الإســلام نفســها.

فالتجربة الإســلامية الأولى التي صاغها النبيُّ ﷺ غيرت المعادلة الاجتماعية للعرب، وأخرجت إنسانًا جديدًا غيَّرَ مجرى التاريخ، وشادَ حضارةً خلال نصف قرن، وأنتج أشــخاصًا أمثالَ: عمار بن ياســر، وبــلال، وربعي، وعمر رضي الله عنهم أجمعين.

فعمــار بن ياســر رضي الله عنه كانت روحــه المتناغمة مع نــداء الفكرة الإسلامية وحرارتها الإيمانية، كانت هذه الروح تدفعه إلى أن ينقل حجريــن بدل حجرٍ واحدٍ عندَ بناء المســجد النبوي.

وبلال رضي الله عنه الذي ينادي: (أَحَــدٌ أَحَدٌ)، إنما كانت روحه أقوى من تلــك الصخرة التي على صدره، إذ كانت تتطلع بفعل التوتر الذي أحدثه الإســلام فيها إلى حياة أسمى من ذلك العذاب الذي كان يلاقيه؛ فلا يحسّ به.

يمكن التأكد من الفعالية في الواقــع في روابطها بواقع الحياة مباشــرة، وهي أكبرُ ما يميِّز المجتمعاتِ، حتى إنَّ التقدمَ أو التأخرَ الحضــاري يمكن أن يلاحظه الإنســان من خــلال ملاحظة عامل الفعالية، إذ يجدُه يقسم العالم إلى شطرين: أحدهما: يتميز بالفعالية ويطبع بها كل جهوده وسلوكه، والآخر يتميز باللافعالية والتسيب في كل مظاهــر حياته، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال مشــاهدة النســيج الاجتماعي والمؤسســات الاجتماعية الــتي توجد في كلا الإطارين الحضاريين.

بعبــارة أخــرى: يمكن رؤيــة نموذجين اجتماعيــين مختلفين؛ أحدهــــما: النموذج الغربي يطـــبعه التنظيم والديناميكا، أي: تنتظمه الفعالية في واقع حياته، والآخر النموذج المتخلف، تنتظمه ضروب من التســيب واللافعالية.

وهــذا كله في إطار التاريــخ، إذ لو رجعنا قرنــين أو ثلاثة إلى الوراء لوجدنا الصورة معكوســة تمامًا، إذ إن هذا المستكشــف يجد الصورتين معكوســتين، فكل ضروب النشاط والفعالية يجدها على محــور طنجة-جاكرتا، وكل ضروب التســيب واللافعالية يجدها على المحور الغربي.

فمسألة الفعالية في حقيقتها تتعلق بالمرحلة الحضارية التي تعيشها الحضارة، كما تتعلق بنمط الثقافة التي هي دستور لقيام حضارة.

فاختيار (النموذج) يحدِّدُ المنهج، وهــذا بدوره يجعل عملية بناء الحضارة عملية قصدية، تتحقق في إطار زمني منضبط، فكل حضارة

يتكون لها نموذجها ومُثُلها الذي تجعله نصب عينيها، سواء كان هذا النموذج مستمدًا من الحاضر أو الماضي أو كليهما، أو شيئًا آخرَ، ولكن لا بدَّ من نموذج ومثال يُحتذى، واختيار النموذج يحدِّد المنهج إلى حدٍّ ما، فهناك ارتباط بين النموذج والمنهج، وفي إطاره تتحقق صور التنظيم والديناميكا؛ أي: الفعالية.

غياب الفعالية في المجتمع الإسلامي يُعزى إلى أن العالم الإسلامي لم يخترْ حتى الآن نموذجه الذي يعطيه تحديدًا لمنهجه، وبقيت النهضة تنمو تحت تأثير نموذج غامض لم تختره، بل فُرض عليها تلقائيًّا من أذواق القوم، وما يبدو أنه اختيار للنموذج الغربي في العالم الإسلامي هو في حقيقته من قبيل (وضع الثور قبل المحراث)، وتكديس لمنتجات الحضارة الغربية، وهذا التكديس قد تمَّ في تنكر كامل تقريبًا للنموذج ولفضائله الواقعية ولقيمه العامة، وكان انجرارًا وتقليدًا للجانب السافل منه.

من هنا يمكن أن نؤكِّد أن الفعالية من وجهة اجتماعية (سوسيولوجية)، تنتج من خلال التركيب التاريخي للعناصر الأولية للحضارة، والتي هي الإنسان والوقت والتراب، على ضوء هداية منهج مكيف طبقًا للنموذج الذي اختاره المجتمع.

فالفعالية في جوهرها منهج فكري، بمعنى أنها (مسألة أفكار ومناهج وليست مسألة وسائل)، كما اعتقد العالم الإسلامي حين اتجه إلى البحث عن الوسائل المادية، بينما الأمر يتعلق بنمط الثقافة وما تحدده من مناهج، وما توفره من أفكار وجو فكري، يفعِّل الأداء الاجتماعي للفرد والمجموع.

فالحديث عن النموذج والمنهج هو في الحقيقة حديث عن ترجمتهما في صورة مشروع ثقافي، يكتّل الجهود ويشكّل دستور الحياة من خلال ما تحويه الثقافة من عناصر الفكر والأخلاق والعمل والجمال، وحينما ينعدم الإطار الثقافي بعناصره هذه، فإن الأفكار تتجه إلى الدوران حول التقليد، وتفقد اتصالها بنموذجها الثقافي الذي تكونت فيه أصالة، ويضمن لها الدور الفعال في التاريخ، وتتحول إلى معوّقات إن لم تكن أمراضًا تقضي على بوادر النمو.

ولذا فإن انعدام الفعالية يكمن في انفصال الأفكار عن نموذجها في عالمها الثقافي الأصيل، فتصبح هذه الأفكار حينئذ الجراثيم التي تنقل الأمراض الاجتماعية، سواء الموروثة عن عهود التخلف، أو الأفكار المميتة القادمة من عالم ثقافي آخر انفصلت عنه.

لا يمكن الحديث عن الفعالية منفصلة عن الثقافة، ذلك أنَّ الثقافة تشكِّل الإطار الذي ينظم سلوك الفرد في محيطه الاجتماعي، ويمنحه الوجهة التي يسير وفقها، وأساس كل ثقافة هو تركيب تفاعلي بين عناصر الوجود الاجتماعي؛ الأشخاص والأشياء والأفكار، وضمن هذا التركيب تتوجه الثقافة إلى أن تكوِّنَ إطارًا لتحقيق الفعالية أو الركود.

ونموذج الثقافة يحدِّد الفعالية؛ فالثقافة إذا ما تكونت في مجتمعٍ، نشأت فيه تلقائيًا شبكة الصلات الثقافية، وتحدَّدت فيه فعالية الفرد، إذ الثقافة ليست مجرد علم يتعلمه الإنسان في المدارس ويطالعه في الكتب، إنها ذلك الجو المتكون من عادات وتقاليد وأذواق، أي: الجو العام الذي يطبع أسلوب الحياة في مجتمع معيَّن وسلوك الفرد فيه

بطابع خاص يختلف عن الطابع الذي نجده في حياة مجتمع آخر.

ومـــن هنا فنمط الثقافة مهمٌّ جــدًّا في تحديد القيم الفعالة، إذ الثقافة إما أن تكون زادًا ومحيطًا يحرك إرادة الفرد ويحرر طاقاته في المجتمع، أو أنَّها تكون عائقًا إذا كانت ثقافة تحمل دستورًا للعطالة والتسيب واللامبالاة الفردية والاجتماعية.

فأمر الفعالية متعلق بإطار الثقافة الذي يجعل من المبدأ الأخلاقي منتجًا للفعالية، ذلك أن فعالية المجتمعات تزيد أو تنقص بقدر ما يزيد فيها تأثير المبدأ الأخلاقي أو ينقص، فإن مواقفها إزاء المشكلات محددة بذلك المبدأ الذي يكوّن الشــرط الأساســي لأفعالها، حيث ينظم فيها علاقات الأشخاص تنظيمًا يناسب المصلحة العامة، فأول شرط لتكوّن الثقافة إطارًا للفعالية هو وجود المبدأ الأخلاقي، وجودًا اجتماعيًا يؤثر ويوجه حركة التاريخ، وينشئ الصلات الاجتماعية، ويبني النسيج الاجتماعي.

وتبعًا لنظرية (مالك بن نبي) - رحمة الله عليه -في موقع الفكرة الدافعــة في حركة التاريخ وبناء الحضارة وتشــكيل نمط الثقافة، فإن الثقافة لا تستطيع أن تُكوِّن أسلوبَ الحياة في مجتمع معيَّن، إلا إذا اشــتملت على عنصر يجعل كل فرد مرتبطًا بهذا الأسلوب، فلا يُحدِث فيه نشوزًا بسلوكِه الخاص، وهذا لا بد أن يكون خُلُقيًّا، أي: المبدأ الأخلاقي.

فعناصر الثقافة تشــكل مجتمعة شــروط الفعالية، فإنَّ الثقافةَ تشــتملُ على أربعةِ عناصر: عنصر أخــلاق، وعنصر جمال، وعنصر

منطق عملـــي، وعنصر علم، فالمبدأ الأخلاقي وذوق الجمال والمنطق العملي لا تكون وحدها شيئًا من الأشياء إن لم تكن في أيدينا وسائل معينة لتكوينه، والعلم هو الذي يعطينا تلك الوسائل، فالعـــــلم يكون عنصـــرًا هامًّا في الثقافـــة لا يتمُّ بدونه تركيـــبها ومعناها، فهو إذن عنصرها الرابع.

الفعالية ليست شيئًا فطريًّا مركبًا في فطرة الإنسان أو المجتمع، وإنَّمـــا هي نتاج لتركيب ثقـــافي معيَّن متحرك في إطـــار التاريخ، ومرتبط بالوضعية التي يقفهـــا المجتمع من دورة الحضارة.

نحو مجتمع عربي قارئ

القراءة مفتاح العلم، بل مفتاح الســـعادة في الدنيا والآخرة، وأمة لا تقرأ أمة لا تعرف حاضرها من مســـتقبلها، أمة لا تأخذ عبرة من ماضيهـــا، ولا تمتد جذورها إلى أصولها، أمـــة لا تقرأ أمة قد ماتت وكبَّرَ الناسُ عليها أربعًا، ويكفي الأمة الإســـلامية شرفًا أنَّ أول ما ابتدأ به نزول القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ﴾ [العلق/١] كان أمرًا بالقراءة، وحديثًا عن القلم والعِلم، وظل سلَفنا الصالح -رضوان الله عليهم- في ظلِّ هذه الكلمة العجيبة ﴿اقْرَأْ﴾ ينهَلون من منابع العلوم والمعارف الشـــرعية والعلمية والأدبية، حتى استطاعوا إقامة حضارة عظيمة انتشلوا بها البشـــرية من بحور الظلم والتخلف إلى شُطآن العلوم والمعارف.

أما في العصر الحديث، أصبحت أمّة ﴿اقْرَأْ﴾ لا تقرأ، حتى سبَقَها إلى ميادين القراءة والاطلاع أُمم وشعوب أخرى، شجعت على التعلّم والقراءة والاطلاع الحرّ في شتى مجالات الحياةِ، ممَّا أدى إلى تفوقهم وريادتِهم، وعــالَم اليوم هو عالم القراءة والاطــلاع والإبداع، إلا أنَّه رغم ذلك يعدّ الحديث عن علاقة الإنســان العربيِّ بالقراءة في هذا العصر حديثًا مرًّا، يحمل الأسى والشجون على أمةٍ كان أول خطابٍ من ربّها إلى نبيّها أمرًا بالقراءة، ودعوةً إلى العلم والتعلم.

مع أننا أمة ﴿اقْرَأْ﴾ لكن للأسف لا نقرأ، وإذا قرأنا لا نقرأ المفيد من الكتب، إلا من رحم الله من هذه الأمة، والأغرب من ذلك تقرير إحدى الجامعات في عالمنا العربي الذي أكد أن ٧٢٪ من خريجي الجامعات يتخرَّجون دون أن يقوموا باستعارة كتاب واحد من مكتبة الجامعة!

وإذا حاولنا البحث وراء أسباب تدني مستوى الاطّلاع والقراءة في عالمنا، فإننا نرجع ذلك للأسباب الآتية:

١. ارتفاع مســتوى الأمية في عالَمنا العربي، والتي لا تزال أعلى من المتوسّط الدولي، وحتى أعلى من متوسطها في البلدان النامية، فعالَمنا العربي دخل القرن الحادي والعشــرين وهو مثقَل بعبء ٦٠ مليونَ أمِّيٍّ، معظمهم من النساء.

فهذه النســبة المرتفعة في عدد الأمِّيِّين لا شَّــك أنها تقف حجرَ عثرةٍ نحو التحول إلى عالم القراءة الرحب، ومن طليعة الأسباب التي عطّلت اهتمام فئةٍ كبيرة من المجتمع العربي بالقراءةِ وحبّ التطلع والبحث عن المعرفة.

٢. انتشار الأمِّية الثقافية بين المتعلمين، ونقصِد بهذه الأمِّية اكتفاء شبابِنا ممن نال قِسطًا من التعليم في المدارس والجامعات بألِف باء الثقافة، وتوقفهم بعد انتهاء مراحل تعليمهم من ورود منابع الثقافة الحرة، والاستزادة من العلم والمعرفة.

٣. إخفاق المناهج الدراسية في تشجيع النشْءِ على القراءة والاطلاع، بسبب فِقدان التنظيم المبرمج للكتاب المدرسي على أسسٍ عصرية مبسطة وشائقة، باستبدال روائع الفكر والأدب بكتاباتٍ سطحية تقتل في التلميذ روح الرغبة للمعرفة، بدعوى إذابة الحدود بين الثقافة العليا والثقافة الشعبية، الأمر الذي أدى في النهاية إلى انحسار الحصيلة اللغوية لدى الدارسين، وإضعافِ قدراتهم التعبيرية والإبداعية، وأوجدَ عازلًا معنويًّا بين الدارسين ومستقبلِ علاقتهم بالكتاب، ونفورهم في النهاية من عالم القراءة بمجردِ انتهاء المراحل التعليمية في المدارس والجامعات.

٤. ظهور الوسائل الإعلامية من تلفاز وفضائيات، التي استهلكت حيزًا كبيرًا من وقت الناس، وأسهمت بشكل كبير في إقصاء الكتاب في عالمنا العربي من مكانِه، واكتفاء أغلب الناس بالثقافة المرئية والفضائيات، مستسلمين لجاذبيتها وقدرتها على دغدغة حواسهم، وامتصاص وقت فراغِهم، مكتفين بقشور الثقافة، مبتعدين عن فضيلة التفكير، في حينِ أن الدراسات العلمية تؤكد على أنّه كلما ازداد تعرض الفرد للقراءة كلما ازداد ذكاؤه العام، وازدادت أيضًا قدرته على الإبداع، بعكس التّلفاز الذي يصيب الإنسانَ بفَقر الخيال، والعجز عن

التهويم ممَّا يؤثِّر سلبًا على طاقة الإنسان الإبداعية بعد ذلك.

والسُّؤال الذي يتبادر إلى الأذهان: ما الوسائل التي باتباعها نجعل من القراءة سلوكا يوميًّا للإنسان العربي؟

١. ضرورة أنْ تقدّم المناهج الدراسية للطلاب في صورة عصرية، تتّسم بجاذبية العرضِ، وتحفز ملكة الإبداع، وتنشّط القدرات الذهنية لدى الطلاب؛ مما يقوّي لديهــم الرغبة إلى الاطلاع، والانفتاح على عالَم الثّقافة الرحب.

٢. الاهتمام بالمكتبات المدرسّـية في المؤسســات التعليمية في عالمنا العربي، باعتبار أن المكتبة هــي الوعاء المعرفي الحرّ الذي يفتح الآفاق، ويثري الرصيد المعرفي لدى التلميذ، بعيدًا عن الامتحانات، هــذا الاهتمام الذي يتطلب العناية بحصة المطالعة المدرسـية، والعمل على حســن استثمارها على أكملِ وجه، بضرورة توعيةِ القائمين عليها بإنجازها بنظامٍ ودقة حسبما تنصّ عليه البرامج الرسميــة للتربية والتعليــم في بلادنا العربيــة، وعدم إهمالِها بدعوى أنها مادة غير أساســية، وغير مدرَجــة في الامتحانات.

كما أن دور المعلم فيها أساســي وفعال، فهو الذي يمهّد الطريق أمام التلميذ للولوج إلى عالَم المطالعة من بابه الواسـِع، وأنَّ مهمتَه يجـــبُ ألَّا تقتصرَ عندَ حدودِ وضع الكتاب في يد الطفل، ولكن يجب أن تتعدى ذلك إلى تعريفه بالكتاب ومحتواه وأســلوبِه.

كما يجب أن يعرف الطفل بالعادات الحسنة للقراءة؛ كتركيزِ

الانتبــاه فيما يقرأ، وتحديدِ الغاية مِــنَ المطالعة، وتعويدِ الأطفال المطالِعين على النقاش والحوار.

هذا إلى جانب تزويد المكتباتِ المدرسـّـية بالجيد من المؤلفات؛ من دينيــةٍ، وأدبية، وعلمية، مع العنايــة بتوفير كتب خاصة بالأطفال دون الثماني والسبع السنوات؛ ذلك لأنَّ لهذه المرحلة تأثيرها المهم علــى تنمية الميولِ القِرائية عند الطفل، وتعويده منذ نعومة أظفارِه علــى الارتباط بعالَم الكتاب مــن أوَّلِ المراحل التعليمية لتكونَ لهم القراءة بعد ذلك عادةً أساســية في حياتهم المستقبلية.

٣. إنشــاء صندوق عربي مشــترك تســهم فيه الحكومات العربية لدعم صناعة الكتاب وتخفيضِ ثمنه، بحيث يسهل اقتناؤه على الطبقات الفقيرة والمتوســطة من ذوي الدخل المحدود، على أن تؤلِّف لهذا الصندوق لجنــة خاصة تكون مهمتها اختيار الجيد من المصنفات التي يمكن أن يقتنيها القارئ بسعرٍ تشجيعي، فلو تحقق ذلك الحلم، لأوجدنا في الجماهير العربيةِ رغبة القراءة والاطــلاع من ناحية، ومــن ناحية أخرى أبطلنــا حجّةَ الذين يعللون أســباب عزوفِهم عن القراءة بسبب ارتفاعِ أسعار الكتب.

٤. تعميم الأندية التي تهتــم بالقراءة (القرائية) في مختلف أنحاء الوطــن العربي على غــرار الأنديــة الرياضية الــتي تدعمها الحكومات، مــع وضع برامج خاصة لمباريــات القراءة والحفظ وتلخيص الكتب واســتظهار المعلومات، مع تطبيقِ نظام خاصّ لجوائز المتفوقين، وغير ذلك من دواعي النشــاط الذي يشجع على القــراءة ويحث على الاطلاع.

إن الأمة القارئة أمة مثقفة متفهمة عاقلة إن هي أحسنت فهمَ ما تقرأ، حينئذ ترتفع مكانتها بين الأمم لتصبح من الأمم القوية، وتعلو وترتقي قيمتها بثقافتها وثقافة أبنائها، فتنال احترامَ الحاضر مكانًا وزمانًا، فيفخر بها صديقها ويهابها عدوها.

الحرية والهوية

من أهمِّ ما يواجهه الإنسان العربي في فترة ما بعد الثورات العربية إعادة التفكير في العلاقة بين الحرية والهوية.. فالحرية، تلك القيمة التي طال هدرها في الحياة الخاصة والعامة، وفي الخطابات الرسمية، وممارسات الدولة على امتداد التاريخ الحديث للعالم العربي، تتقاطع مع الانتماء للوطن أو الأمة أو الدين أو الطائفة أو العرق أو الطبقة في عمليتي شد وجذب، ربما كانتا من أهم عوامل تكون هوياتنا وتاريخنا المعاصرين.

إعادة التوازن بين الحرية والانتماء في تكوين الفرد والجماعة في دساتيرنا وقوانيننا القادمة أكثر من ضروري، على ضوء فداحة غياب الحرية كحقٍّ فردي واجتماعي في العالم العربي، وهدرها من قبل غالبية السلطات الحاكمة والمتحكمة فيه.

فالفهم القاصر للحرية لا يقتصر على الأنظمة الحاكمة التي تعودنا على توجيه اللوم لها فيما تعانيه الشعوب العربية عمومًا من إحباط وتخلف وقمع، (وهي تستحق هذا اللوم وأكثر منه)، بل يتجاوزها إلى العديد من المؤسسات التقليدية والأهلية

في مجتمعاتنا، وإلى العديد من الأفراد الفاعلين والمؤثرين فيها.

إنَّ الشرخ المعرفي العميق الذي واجهته وما زالت تواجهه الغالبية العظمى من قضايا الحرية في عالمنا العربي.. أفراد وجماعات يطالبون بحريتهم، وأنظمة وحركات ومؤسسات وأفراد يهاجمونهم ويدينونهم وينزلون بهم أشد العقوبات بتهم مختلفة ومتناقضة أحيانًا.

فمهمة الشبيبة العربية الثائرة والمتنورة لم تنته بعد. وطريق الخلاص من آثار الأنظمة الشمولية التي هُزمت ما زال طويلًا وصعبًا، بل لعلَّه ما زال في بدايته، فالشباب الذين فجروا الثورات العربية، والذين صاروا وقودها ونارها ونورها، تراجعوا لأسباب شتى عن لعب أدوار مؤثرة في صيرورتها، بعضهم انسحب من الساحة قرفًا وغضبًا ويأسًا أو احتجاجًا، وبعضهم الآخر عاد إليها بمظاهرات جديدة تدعو إلى ما دعت إليه المسيرات الأصلية: الحرية والديمقراطية والعدالة وحقوق الإنسان والمساواة، بعدما خاب أملهم في اتجاهات القوى السياسية التي حلت محل الأنظمة المخلوعة، أو تلك التي استلمت إدارة دفة الصراع معها، ولكن حركات الشباب التي بدأت عفوية وأصبحت أكثر طوباوية وتشرذمًا مما بدأت، قلما تمكنت من تجاوز ساحات الاحتجاج وتنظيم نفسها لفرض التغيير السياسي التي أججت الثورات لأجله أصلًا، وتراجع تأثيرها على تركيبة النظام الجديد عما كانت تستحقه بفضل دورها في الثورة، عندما أتت ساعة الحسم السياسي حلت محل حركات الشباب الثائر في هذا المقام قوى سياسية مخضرمة، أتقنت لعبة الحكم في كواليس ومعسكرات السلطات البائدة، أو في سجونها ومنافيها كما حصل

ﾞ في تونس ومصر واليمن، على حين تقاسمت ليبيا مجموعات ذات أجندات متنافرة أقصت الثوار، كما يبدو أن الأمر سيؤول إلى النتيجة نفسها في سورية.

وبغض النظر عن إخلاصها ورغبتها في تحسين شئون البلاد والعباد، تنتمي بمجملها للمنظومة المعرفية الشمولية، منظومة المجتمع فوق الفرد بالمطلق، ومنظومة تقنين الحرية وربطها بأيديولوجيات تقضي على أنبل ما فيها، وهي على ما يبدو سائرة في اتجاه استرجاع هذه المنظومة وتبرير هذه الاستعادة بالسعي للمحافظة على سلامة الوطن واستقراره تحت وطء المؤامرات الخارجية التي تتجاذب أطرافه من كل حدب، أو بالعودة إلى الأصول الشرعية الحقّة للمجتمع، أو على أقل تقدير الرغبة المفترضة للأغلبية الدينية فيه، أو لمكافحة الصراعات المستوردة والتي اتُّهمت بتسميم قطاعات كبيرة فيه، وبمخالفتها لأخلاقنا وعاداتنا وثوابتنا.

أي: أن هذه القوى السياسية لم تأت بجديد لم تستخدمه الأنظمة البائدة في تبرير سلطتها، على الرغم من أن بعضها عانى من اضطهاد الأنظمة إياها معاناة شديدة، وصعد إلى سدة السلطة بانتخابات صوتت فيها أغلبية من المواطنين لصالحه، ما زالت أملًا وشعارًا لكل من شارك بالثورة أو صعد على وهجها، ولكنها ما زالت أيضًا بعيدة المنال، فتطبيقها يحتاج ليس فقط لسياسة جديدة، ولكن أيضًا لمعرفة جديدة ولوعي جديد وإرادة جديدة.

لا نشكك أبدًا بصدق رغبة الشباب الثائر بالحرية، ولتحقيق هذا الهدف عليهم استعادة زمام المبادرة في تحديد أهداف الثورة،

ورسم سبل الوصول إليها. بمعنى آخر: عليهم أن ينخرطوا في الحياة السياســية ويلعبوا لعبتها، على الرغم من السمعة السيئة للسياسة التي ســببتها عقود التسلط والقهر من هذا المنطلق.

على الشــباب تأســيس الأحزاب السياســية، وتطويــر برامجها الانتخابيــة، وتقديم مرشــحيهم لكل الانتخابــات والدعاية لهم، وعليهم أيضًا التقدم لقيادة الحركات المدنية والنقابات المهنية، ولمّ صفوف المؤيدين واستثمار زخمهم الشعبي وطاقاتهم اليافعة؛ لإنجاح أفكارهم وبرامجهم ديمقراطيًا.

عليهــم أيضًا إيصــال المعرفة الجديدة والثقافــة الجديدة التي أنتجوها خلال الثورة أو بوحي منهــا، والتي ما زالوا ينتجونها لكل طبقات الشعب وفئاته العمرية، السعي أيضًا لإدراجها ضمن الأنظمة التعليمية والثقافية والإعلامية لكي تصبح جزءًا من الثقافة العامة، ومرتكزًا أساسيًا للسياســة والقانون في بناء نظام الحرية، بدلًا من البرامــج المتهالكة التي ما زالت القوى السياســية تقدمها على أنها خلاص الوطن والمواطن بعد الثورة.

ولربما أننا نطالب الشباب بالكثير مما لم تتمكن الأجيال الماضية مــن تحقيقه، حتى في ظل ظروف أقل وعــورة وخطرًا، ومن منطلق الإيمان بقدرتهم على صنع حريتنا الحقيقية بعد أن أثبتوا بإمكانهم بنضالهم وثباتهم وتضحياتهم، وكذلك بتكاتفهم وتناغم مطالبهم في مســيراتهم، التخلص من أنظمة القمع التي جثمت على صدور أممنا، والتي استســلمنا لطغيانها لعقود إلى أن تهاوت تحت ضغط الشباب الثائر أمام أعيننا المتعبة وغير المصدقة والممنونة.

إن التقاط الخيط الفاصل بين المساحتين -الحرية والهوية- سيبقى مثار قلق وجدل، فكلما توسّعت مساحة الاهتمام والتركيز على الهويّة، شعر الناس بالخوف على حريّاتهم الشخصية، وكلما اتسعت مساحة الحريّة شعر الناس بالخوف من الضياع والتشتت والتفتت.

إننا إذًا أمام معادلة صعبة ومعقّدة، بيد أن الذي يمكن اعتماده موجّهًا من بين جملة الموجّهات مراعاة طبيعة المرحلة التي يمرّ بها المجتمع، فحينما يكون المجتمع في حالة من الاستقرار الثقافي والسياسي والأمني، فإن الحاجة تبدو ملحّة أكثر لفتح آفاق الحريّة لإحداث النهضة المطلوبة، وتنمية الطاقات والقدرات، وإطلاق ممكنات الفرد، أما حينما يكون المجتمع في حالة من الاختراق الفكري والاضطراب الأمني، وتداعي معاول التفكيك والهدم داخليًّا وخارجيًّا، فإن الأولوية بلا شك ستتجه نحو صيانة المجتمع وحمايته، والمحافظة على وجوده.

إن منطقتنا اليوم تتعرّض لعدوان مركب وبعنوان الهويَّة الصارخ، فإسرائيل تشكَّلت أساسًا بمنطق ديني ثأري للانتقام من كل ما هو عربي وإسلامي، والشيء نفسه بالنسبة للمشروع الإيراني إن لم يكن الأشدّ خطرًا والأكثر انتشارًا، وكلاهما عدوان عابر للحدود والسدود، وفي مثل هذا الوضع لا يعقل أن تكون الأولوية لحرية التعبير والنقد المفتوح، خاصة ذلك الموجه تحديدًا لتراثِنا وتاريخِنا.

إنَّ الأمةَ اليوم بحاجة إلى استنهاض كل عوامل وحدتها وثقتها بنفسها وعقيدتها، ولن يستطيعَ أي فكرٍ تجديديًّا كان أو تقليديًّا، يمينيًّا أو يساريًّا أن يجمع هذه الأمة ويمكّنها من الوقوف على قدميها،

إن لم يكـــن قد انطلق من ضمير الأمـــة وهويتها وانتمائها العميق.

النمطية داء حضاري

لـــو نظرنا لجميع مَـــنْ تمكَّنوا من تغيير العالم باكتشـــافاتهم المذهلة، ســـنجد بأنَّ العامل المشترك -الوحيد ربَّما- فيما بينهم هو أنهـــم لم يكونوا يفكرون بالطريقة التي يفكر بها باقي الناس.. ففي حـــين أن معظم الناس ينظرون للعالم علـــى أنه عبارة عن فيض لا نهائي من القوانين والالتزامات والحدود، يرى الآخرون بأنَّ العالم ما هو إلا ملعب واســـع يمكنهم أن يفعلوا به ما يحلو لهم.. فضلًا عن هـــذا، فإن من يتصفون باللاعقلانية لا يقبلون الحالات التي تفرض عليهم، ولا يتقبلـــون أن يصلوا لأي نتيجة لا ترضي طموحاتهم.

ففي أوطاننا العربية قلة قليلة يمكن تصنيفهم من فئة المبدعون، الحالمـــون، والبقية قد اعتادوا على طمس أحلامهم بحجه الواقعية؛ لتكون المحصلـــة النهائية تضاؤل الهمم، هؤلاء مثل مَنْ عاش طوال حياته تحت سقف واطئ، وتعوَّد على حني ظهره حتى يتمكنَ من السير، حتى وإن أُزيحَ وفجّر هذا الســـقف، فإنه ســـيظلّ محني الظهر؛ لأنه شُكّل على أساسه وحدوده، ولن يكون من السهل أن يتطاول لتجاوزه.

إن أجيالنـــا العربية تم صقلهم من الصغر على أن تكون ســـقف أحلامهم: حصولهم على وظيفة، واقتناء أحدث سيارة، وشراء منزل، أحلامهم نسخة مكررة لا فرق في الطموح.

إذا أمعنتَ النظر في العقلية العربية تجدها تنفر من الأحلام، وتعشق المبيت في حضن الماضي العتيق، هذه العقلية التي تقاوم التغير، تقاوم الأفكار الجديدة لعجز أصحابها عن الابتكار، أو خوفهم من الجديد، أو تقديسهم للقديم، وهي علامة ضعف تربوي وإداري تمَّت صياغتُها بحيثُ لا مجالَ للإبداع والتفكير غير النمطي والجهل بالواقع، وهو انعكاس لخلل إداري استسلم للقديم الذي يحافظ على الاستقرار بأي ثمن، ممَّا يصيب العمل بالملل والرتابة والضعف، ويوقف حركة التطور الطبيعية التي يجبُ أن يرتقي لها أي عمل.

هذا الداء الحضاري الذي أصاب أجيالنا الذي يدعو إلى الاستسلام والتسليم، فالاستسلام لا يحقق السلام، بل العمل الصادق وحده من يمنح سلامًا فوق الأرض وتحتها، فهذه النمطية هي عبودية شفافة لا يراها الإنسان إلَّا أذا بدأ بتلوين حياته، وسعى لترك بصمته، ويكون لوجوده على الأرض معنى. هكذا تتطور الأمة.

يجبُ علينا أن نعي بأنَّ اللهَ لم يخلقْنا على هذه الأرضِ لجمعِ المال والعيش فقط، لم يخلقْنا لنعمل في وظيفة لساعات طويلة يوميًّا رغم أننا نكرهها في قرارة أنفسنا، بل خلقنا لإعمار هذه الأرض، ولتكون أكثر ازدهارًا وأمانًا للأجيال من بعدنا، وهذا لا يتحقق من خلال التقيّد بحدود وضعها من قبل بشر مثلنا.

فالطامحون المنجزون الناجحون هم من يتجاهلون حدود القديم، ويمتلكون شجاعة استكشاف الجديد، يرون أشياء لا يراها الآخرون، يرون ما بعد قناعات الحاضر، هم مَنْ لديهم رؤية واضحة للعالم، متحررين من الخوف من العقبات، فعندما يرى الآخرون الحواجز

فإن الناجحين وحدهم مَنْ يجدون طرقًا للالتفاف حولها، ويكمّلون أحلامهم الطموحة بالعمـــل، يجدون طريقًا للتصرف إمَّا بمواجهة العقبـــة، أو بأخذ أولى الخطوات المتتاليـــة حولها، هم من يجترئون على السفر في وجه عدم التصديق.

عندما تجد من يخبرك بأنَّ أحلامك تفوق قدراتك، فإن أســـوأ تصرف يمكنك فعله هو أن تستمع له، لكن تابع طريقك وكون نفسك، ولـــو لم تتمكن من تحقيق أحلامك فلربما تكون خلال محاولاتك قد كسرت عددًا من القيود لمن سيأتي خلفك لتحقيق حلمه، وهذا بحدٍّ ذاته يعد انتصارًا لك، وخير بصمة تتركها على هذه الأرض.

النجاح

لا مراء في أنَّ كلَّ شـــخص علي وجه الأرض يحبُّ النجاحَ، كما يحـــبُّ أن يكون متفوقًا على أقرانه وزملائه فيها، وهذه ســـنة الله في خلقه.

إن أشقى الأشقياء وأتعس التعساء هو الذي حرم نفسه من كافه الخيـــارات المتوفرة له للنجاح في هذه الحياة، ولابد من توفر المواهب والإمكانات لتحقيق المزيد من الأحلام والطموحات والآمال الواسعة العريضة.

فالشخص الذي لا يسمو ولا يحاول أن يصل للنجاح هو شخص فاشل، ويملك شخصيّةً ضعيفة تقنعه بعدم قدرته للوصول للنجاح، فـــلا يحاول ولا يفكّر، ولكن هذا الشـــخص ســـيصل إلى حالات من

الاكتئاب مهما حاول رفض هــذا الواقع، فالرّغبة في النّجاح تولد معنا في الفطرة.

فعندما نكون أطفالًا نســتمر في المحاولــة لنقف رغم محاولات فاشــلة عديدة، ولكننا نتعدّى هذه المراحل الفاشلة ونمشي، لدرجة أننا لا نفكّر كم فشــلنا، ثم يبدأ الطّفل في إخراج أصوات من فمه ليصدر كلمات مفهومة، وبعد العديد من المحاولات الفاشــلة يبدأ بالتحدّث، هكذا حياتنا يجب أن نســتمر بالكثير من المحاولات حتى لو طال فشــلنا سنصل للنجاح، وفرحة وسعادة نجاحنا تكبر بحجم مراحل فشــلنا، فما طعم النجاح إذا لم نشعر بقيمته، فقيمة الشيء لا نشعر به إلا إذا فقدناه، فالفشل قبل النّجاح يعطي معنى للنجاح.

النّجــاح أن تصل لهدفك الذي تســمو للوصــول إليه وتحلم بتحقيقــه، والنّجاح لا يقتصر على النّجــاح الأكاديمي فقط، ولا على التفوّق العلمي، بل يشــمل جميع نواحــي حياتنا، كأن تكون ناجحًــا في عملك وتحقق إبداعات في تطويــره، أو أن تكون متميّزًا وناجحًا في علاقاتــك الاجتماعيّة ومحبًّا لمســاعدة الآخرين ومن حولك، أو حتى النّجاح في إنشاء وتربية الأطفال الصالحين، وحتى في أداء العبادات، فكلّ شــيء في حياتنــا يحتاج أن نحقّق النّجاح به من علاقات وسلوكيّات وحتى دراسات وتحاليل وعبادات، لذا يتوجّب علــى الجميع أن يبحثوا عن النّجــاح ويحاولوا أن يصلوا إليه.

صحيح أنَّ التفوق الأكاديمي شــيء جميل، والمدارس واحدة من أقدس الأماكن علــى وجه الأرض، ولكن القبيــح أن يُكال الأولاد بعلاماتهم، فيكون مقدارهم مقدار ما يُحصلون من درجات وكأنهم

بضائع تُوزن، وسلع تُثمن، ثم لماذا على الجميع أن يكونوا أطباء، وكأنَّ مهمة كل إنسان أن يداوي نفسه، ولماذا على الجميع أن يكونوا مهندسين، وكأن شقّ الطرق ورفع البنايات وبناء الجسور فرض عين!

كما تحتاج هذه الأمة للطبيب والمهندس...فهي أيضًا بحاجة للبقال والنجار والحداد والسمكري وعامل النظافة والطاهي والخياط والاسكافي وبائع الزهور...!

لا يوجد واحد منا إلا ويعرف عشرات بل مئات الأسماء الناجحة في حياتها، والتي لا تحمل شهادات أكاديمية ولم تتخرج من الجامعات، إذا وجدنا النبوغ الأكاديمي علينا أن نشجعه ونرعاه ونثيب عليه، وإذا رأينا موهبة أخرى علينا أن لا نئدها؛ لأنَّ وأد المواهب من وأد الأرواح، ثم قد لا يكون هناك نبوغ ولا موهبة، فهل ندفن أولادنا؟!

النجاح هو عادة من العادات الحميدة الهامة والأساسية التي يجب تطويرها وتنميتها وتحسينها بشكل مستمر، بالحرص على ما ينفع، واستغلال الإمكانيات الكامنة، وتطوير القدرات بالشكل الذي يفيد صاحبه حالا ومستقبلا.

إن الثروة الذاتية التي حبانا الله بها في شخصيتنا وعقلنا وفكرنا، وطاقتنا ومواهبنا الخاصة هي خير رصيد يمكن استغلاله والإفادة منه؛ لتحقيق أعلى مستويات النجاح التي نريدها في حياتنا،

وليس النجاح فقط في الحصول علي درجات تامة في الاختبارات، والحصول على الشهرة العريضة...الخ.

بل إن النجاح الحقيقي هو شعور ذاتي داخلي بتحقيق ما يصبو إليه الإنسان من خير، وزيادة الثقة بالنفس وتنمية القدرات الذاتية الكامنة.

جميعنا يجب أن نبحث عن النجاح، فنحن خلقنا في هذه الحياة لأهداف يجب علينا أن نسمو ونثابر لنحقق النجاح في جميع مجالات حياتنا، فما معنى الحياة إذا خلت من النجاح، فالنجاح يشعرك بأهميّة وجودك في هذه الحياة، أو في عملك وحتى أسرتك، فأنت بنجاحك تثبت نفسك للجميع.

الخوف شعور وفطرة طبيعية، صفة من صفات الإنسان وهبها الخالق عز وجل لأعظم خلقه الإنسان، الخوف من المجهول شيء طبيعي، فمعظم الناس يهابون المجهول وما يحمله لهم المستقبل.

لو نبحث عن مفهوم للخوف، فقد نجد عدة مفاهيم، فالخوف: شعور إنساني طبيعي، كالحب والشهوة وغيرها من المشاعر، وقد خَلَقَ الله تعالى فينا هذه المشاعر لمصلحتنا كأفراد ومجتمعات بشرية، إذ لولا الشعور بالخوف على الحياة لم يراع الإنسان الحذر اللازم لاستمرار الحياة، وصار كالطفل الذي لا يحذر من النار، ولولا الشعور بالخوف على الرزق لما بذل الإنسان جهده في السعي الواجب للحصول على الرزق.

فالخوف شعور طبيعي، وهو لا يدل على نقص في الإيمان (كما يظن البعض)، بل الخوف يشعر به حتى الأنبياء -عليهم السلام- رغم كمال إيمانهم.

وهناك الخوف من الموت بالذات شعور فطري وطبيعي، فقد جاء في الحديث الشريف عن عبادة بن الصامت ﵁، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّه، أَحَبَّ اللَّه لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّه، كَرِهَ اللَّه لِقَاءَهُ». فالمؤمن إذا حضرَه الموت بُشِّر برضوان الله وكرامته، فليس شيءٌ أحبّ إليه ممَّا أمامه، فأحبَّ لقاءَ الله وأحبَّ اللّه لقاءه، وأمَّا الكافرُ إذا حضرَه الموت بُشِّر بعذابِ الله وعقوبته، فليس شيءٌ أكره إليه ممَّا أمامه، فكره لقاءَ الله وكرهَ اللّه لقاءَه.

إنَّ الإنسانَ مفطورٌ على حبِّ البقاء، فآدم -عليه السلام- عاش في الجنة التي فيها كل أنواع النعيم، فاستغلَّ الشيطانُ فطرةَ حبِّ الإنسان للبقاء التي أوجدها الله تعالى لدى آدم، فأغراه بالأكل من الشجرة لأجل الخلود.

ومن الطبيعي كذلك الخوف على الأهل والأحباب أن يصيبَهم أَذى أو مكروه، أو أن يعيشوا في ضنك من العيش، وذلك حبًّا فيهم وشعورًا بالمسئولية تجاههم.

إذن لا توجد مشكلة بالشعور بالخوف، وإنما تكمن المشكلة في التصرفات التي تنبني على الخوف، ومن التصرفات الخاطئة التي يتسبب بها الخوف الزائد على الروح أو الرزق، تأييد الطغاة أو الظلمة والتزلّف لهم خوفًا وطمعًا، وكذا الكذب طمعًا في المكافأة أو خوفًا من العقوبة، والهروب من مواجهة الباطل، وارتكاب الباطل أو القبول بالذلِّ لإرضاء الرئيس في العمل بسبب الظنّ بأن الدولة أو رب العمل هما اللذان يرزقان.

إنَّ العلاجَ ليس بإلغاء الشعور بالخوف لأنه طبيعي، ولكن يكمن في منع التصرفات الخاطئة اتجاه الشعور بالخوف، وذلك بـ :

١. الفهم العميق لمعنى التوكل، وهو أنَّ الحذر والسعيَ واجبانِ، رغم أن الأجل محدّد والرزق مكتوب، فنحن نحذر ونسعى لوجوب ذلك، وليس لأن الحذر سيمنع القدر، أو لأن السعي هو مصدر الرزق، فهو بيد الله تعالى.

٢. الفهم أنَّ الأجلَ محدد، لكن كيف سنعيش إلى أن يحين ذلك الأجل، متروك لبذل الإنسان في الغالب، فمثلًا قد يكون أجل الإنسان محدد بمائة سنة، لكن إلى أن يحين ذلك هل سيعيش مريضًا أم سليمًا، صحيحًا أم ناقصًا؟ فهذا بيد الله تعالى، ثم لجهد الإنسان، وليس لباقي البشر في الغالب، فيصبح الخوف الحقيقي من الله تعالى وليس أحد سواه سبحانه.

٣. عدم المبالغة في الحرص على الأهل والأولاد، فقد نهى الرسول ﷺ عن ذلك، كما جاءَ في معنى الحديث: لما جاء الحسن والحسين - رضي الله عنهما - يسعيان إلى النبي ﷺ فضمّهما إليه وقال: «إِنَّ الْوَلَدَ مَجْبَنَةٌ» أي: أن الولدَ سببٌ لجبنِ الأب، فإنه يتقاعد عن الغزوات بسبب حب أولاده والخوف من الموت عنهم، «مَبْخَلَةٌ» أي: أن الولد سبب للبخيل بالمال، «مَجْهَلَة» لكونِه يحمل على ترك رحلة العلم والجد في تحصيله، لاهتمامه في تحصيل المال لهم، «مَحْزَنَة» لكونه يحمل لأبويه الحزن، إذا مرض سبب لهم الحزن، وإن طلب شيء لا قدرةَ لهم عليه حزنا.

٤. الاقتداء بذوي الشجاعة في القديم والحديث، والابتعاد عن الجبناء الذين يزينون الخوف والجبن للإنسان.

٥. طلب المشورة من الحكماء الصالحين، وخاصة عند التردد في لحظات الضعف البشري التي يمر بها غالبية الناس.

٦. الإكثار من الدعاء لله تعالى والاستعانة به دومًا، فهو الذي خلقنا فيعرف مداخلنا ومخارجنا، وما ينفعنا وما يضرنا، وما يضعفنا أو يقوينا، ولا حول لنا ولا قوة إلا به سبحانه.

لا أحد منا يعلم ما يحمله الغيب له، إنه مجهول، غير مُدرَك، لا يمكن لنا الإطلاع عليه، والحقيقة الواضحة أنَّ الواقع يتغيّر، ولا يدوم إلا الله ﷻ. فالأخذ بالأسباب والسعي الجاد للتطور نحو الأفضل والاجتهاد، لكنَّ السرَّ يكمن في بركة الله وتوفيقه، والتوكل على الله بقلب نقي مطمئن لرحمته وحسن الظن به.

غريب الدار

المتأمل لواقع مجتمعنا الإسلامي المعاصر يرى هذا المجتمع غريبًا عن الإسلام، أو بالأحرى أصبح الإسلام غريبًا في بيئته، وذلك في مختلف جوانب الحياة أكانت الثقافية أو الاجتماعية أو السياسية، وحتى الفكرية.

الإسلام هذا الدين الذي جاء ثورة شاملة في مجتمع بدوي لدحر كل القيم البالية التي انتهكت كل حقوق الإنسان, هذه الثورة

جاءت بالتغير والنهوض والســير بهذا المجتمــع البدوي البالي في طريــق الحضارة, فما حققته هذه الثــورة العارمة في بناء مجتمع حضاري في شــتى مجالات الحياة خير دليل على عظمة هذا الدين.

لو نظرنا للقيم السائدة اليوم نرى أنها وبخاصة في نظرتها للمرأة التي كانت توأد وهي في مهدها في الجاهلية، واعتُبرت رمزًا للعارِ الذي يصيب القبيلة، جاء هذا الإســـلام وأزال هذا المفهوم الدوني للمرأة وأكرمها ورفع من شـــأنها، هذه هي الأم والأخت والابنة أوصى بها الشرع في الكتاب، وثبتَ في السنّةِ قول المصطفى ﷺ: «رِفْقًا بِالقَوَارِيرِ».

اليوم ونحن في القرن الواحد والعشــرين، هل تغيرت هذه المنزلة التي منحها الإســـلام للنســـاء، ورجعنا إلى الأزمنة الغابرة، أزمنة ما قبل الإسلام؟

لــو نظرنا للمرأة اليوم في مجتمعنا الحضاري المعاصر لا تختلف كثيرًا عمَّا كانت عليه قبل الإسلام في نظرة ومعاملة المجتمع لها، إن عاشـــت سلبت كل حقوقها واعتزلت لمهام البيت والإنجاب، وهذه المهمات التي ســـطرت لها سابقًا ليست ببعيدة عما هي عليه الآن.

وفي بعض المجتمعات الإســـلامية المعاصرة حق التعليم حكر على الرجال فقط، واستثنيت منه النساء، فكان سبب الاضطهاد الجسدي والثقافي والاقتصادي وحتى السياسي الممارس عليها أعادها للعصور الجاهلية.

والســؤال الذي يطرح نفســه هنا: هل المجتمع المعاصر مجتمع إســـلامي روحيًا وفكريًا أم هو مجرد اسم ليس له من الإسلام شيء؟

لنجيب عن هذا السؤال: فإن المجتمع المسلم اليوم من ناحية تعامله ونظرته للنساء لا يختلف عن المجتمع الغربي غير المسلم في العنف الجسدي، الذي أغلب ضحاياه من النساء، وهذا العنف في تزايد مستمر، على أنه لا يمتّ بأي صلة لتعاليم ديننا الحنيف.

رغم ما قدمه هذا الكائن المسمى امرأة من أعمال وبطولات، والتاريخ زاخر باللواتي حملن السلاح ووقفن جنبًا إلى جنب مع الرجال، ساهمت في تحرير بلدانها، والقائمة طويلة من الشهيدات الفلسطينيات اللائي ضحين بأرواحهن لمجرد أنهن لم يحتملن الذل والمهانة لوطنهن، أمثال: (وفاء إدريس)، و(دلال المُغربي)، و(آيات الأخرس)، وقائمة ما تزال مفتوحة.

ولا ننسى الأسيرات اللاتي يقبعن في سجون الاحتلال الصهيوني؛ أمثال: (هناء الشلبي)، و(لينا أحمد الجربوني)، و(منى صبحي أبو سنينة)، دون أن نغفل عن المرابطات على أبواب المسجد الأقصى المبارك اللواتي يدافعن عن شرف هذه الأمة؛ أمثال: (هنادي الحلواني)، و(خديجة خويص) وغيرهن يتعرضن لأبشع أساليب التعسف والعنف.

بعيدًا عن هؤلاء النساء العظيمات، أخريات كتبن اسمهن بالدم على صفحات تاريخ التحرر الخالدة؛ لنوجه البوصلة إلى الجهة الأخرى إلى بقية نساء عصرهن.

الإسلام مثلما أكرم المرأة المسلمة ورفع من شأنها ومنحها حقوقًا، ألزمها بواجبات، فالمتمعّن في واقع هذه المرأة المعاصرة من ناحية

واجباتها تجاه دينها يستشف ضعفها الديني، وأمامها كذلك موجة الغزو الثقافي الغربي الذي رمى بظلاله على مجتمعنا الإســـلامي، فإنَّ المرأة المســـلمة على وجه الخصـــوص أصبحت تبحث عن ذاتها، وتناشـــد حقوقها بتقليدها الأعمى لهذه الحضـــارة الزائفة، آخذة القشور الغرارة فقط، وهي ذات الحضارة التي اعتبرتها مثلًا للتخلف والتبلـــد بدعوى التحضر والتمدن وتوفير الحقوق الضائعة.

فهذه النظرة المغلوطة للمجتمع الغربي للمرأة المسلمة لا يسلم بها أنها تحضّر، بل يعد انجرارنا وراء هذه النظرات الغربية أحد الأسباب التي ساهمت في وصول الأمة الإسلامية المعاصرة إلى الانحطاط الفكري، حين ألقت عباءتها الإســـلامية التي اعتبرتها تخلفًا، ولبست العباءة الغربية التي زينت لها أنها الانفتاح والتحضر, وأي تحضر هذا الذي يقصينا عن ديننا الإسلامي الحنيف الذي جبلنا عليه لنتغنى بغيره.

في ظـــل هذا الانـــزلاق الروحي والفكري لأجيـــال هذا المجتمع المعاصر، وتأثره بثقافـــات المجتمع الغربي روحيًّا وفكريًّا، والبعد عن تعاليم ديننا الإسلامي، وجب شحن طاقته الروحية من جديد كلما دعت الحاجة إلى ذلـــك، لإعادته إلى المنحـــى الصحيح الحضاري ثقافيًّا وفكريًّا، وهذا يقع على عاتق المصلحين والدعاة والمؤسســـات الفكرية الإسلامية.

الإسلام روح تســـري في جسد الإنسان وتنعكس على كل جوانب حياتـــه وتأثيره في مجتمعـــه، ليس عباءة نغيرها حســـب المتغيرات والفصـــول التي يمر بالمجتمـــع إنما كان القـــوة الدافعة لنا لبناء حضاري إســـلامي، وســـتبقى كذلك إلى ما شاء الله.

في أي اتجاه تسير الأمة؟

المتأمل لحال الأمة الإســلامية اليوم بدون شــك يجد ما يؤلمه ويؤرقه، فهناك أرض محتلة، وهناك الفتن التي تنخر جسد الأمة من الداخل، والقوى التي تستغلها من الخارج، فكلُّ هذا لتحقيق هيمنة وبث روح الانهزام والاستسلام التام لقيم الغرب وثقافته، فهناك من يملؤه اليأس وفقدان الأمل حتى ما عاد يرى أي خير في الأمة؛ بسبب ما يرى من المآســي والحروب والنكبات والويلات والتخلف والجهل والاستبداد والظلم.

من ظل هذا الواقع العصيب للأمة لا بدَّ من الوقوف على تساؤل يفرض نفسه، صحيح أن الأمة تمشي لكن في أي اتجاه، نحو التقدم إلى الأمام أم ترجع إلى الوراء؟

قد يكون الجــواب الأول ســلبيًّا نابعًا وقريبًا مــن حالة اليأس و(مرض فقدان الأمل) الذي يعصف بشــباب الأمــة، مع أن اليأس يتنافى مع إيمان المؤمن بالله تعالى القادر أن يبدل الحال متى شــاء وهو القائل: ﴿وَلاَ تَيْأَسُــواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّــهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوســف/٨٧]. ومِمَّا لا شــكَّ فيه أنَّ الأذى الذي تعــرض لــه الصحابة - رضــي الله عنهم - كان أشــدَّ من ذلك، مــع ذلــك لم يبح لهم النــبي ﷺ اليأس. ومن جهــةٍ أخرى هناك مــن يملؤهم التفاؤل والأمــل مهما حدث؛ لأنَّه مبني على أســاس يقتنع به العقل، ويتماشــى مع مراد الله تعالى وســنة الحبيب ﷺ.

لو أردنا وضع مقارنة لحالة الأمة لنقف على الإجابة الصحيحة،

فإنــه يجب قبل ذلك أن نحدِّد بماذا ســنقارنها؟ وماذا الذي تجب مقارنته؟ هل الجانب السياسي أم الاقتصادي أم العلمي أم الحضاري؟

وبالطبع لم نصل إلى ذلك المســتوى خصوصًا في مسألة تحقيق شــرع الله بالمقارنة مع عصر النبوة والخلافة الراشــدة كأول بنية إســلامية حضارية أو مدنية، لكننا من ناحيــة فهم الدين وعلاقته بالحياة والحضــارة، ومدى الوعي والفهم للإســلام، قد وصلنا إلى نقطة ومستوى جيد، وكذلك مستوى الإنتاج العلمي الشرعي، فلا شــكّ أننا في تقدم بالمقارنة مع وضع الأمة قبل ١٠٠ سنة.

ومن الناحية السياســية نحن في وضع مأســوي قريب من وضع دويلات الطوائف في الأندلس، والسبب في ذلك هو نوعية الحكام الذين يديرون الأمة، حيث أكثرهم على مدار التاريخ إما مستبدّ طاغية، أو فاقــد للأهلية والكفاءة، وهناك من اجتمعت فيه كل هذه المصائب، رغم هذا فهناك بريق الأمل كان في التغييرات السياسة التي حدثت في بلدان الربيع العربي، التي تقدّمت نحو رفض الاستبداد والديكتاتورية.

أما من ناحية التنمية فقد قطعنا أشواطًا هائلة بالمقارنة مع ٥٠ ســنة، لكن بالمقارنة مع الدول المتقدمة رغــم ما توصلنا إليه تبقى الفجوة كبيرة باســتمرار، وهذا راجــع إلى الذين تولوا قيادة الأمة ينفقون معظم الميزانية على السلاح، وقمع شعوبهم، وعلى ملذاتهم والمرتزقة المحيطين بهم، على حســاب التنمية.

أما من ناحية وعي الأمة والشــعوب وفهمها لحقوقها في الحرية والمشاركة السياسية وحقوق الإنســان، نحن بالتأكيد قد تقدمنا

كثيرًا بالمقارنة مع فترة الاستعمار، بل حتى بالمقارنة مع ما قبل الربيع العربي.

بقي جانب شديد الظلمة في الأمة، وهي أنها مازالت لم تحرر أرضها ومقدساتها في فلسطين قلب الأمة، لكن الأمل يبقى موجودًا بإنشاء جيل جديد في الأمة يرفض الاحتلال والذل بزيادة وعيه بقضية فلسطين، وهو الأمل بالتحرير الكامل الذي سيحدث حتمًا، فتحرير الجغرافيا وتأمينها من أي قوى استعمارية هو بداية البناء الحقيقي الحضاري للأمة.

فغدًا بإذن الله سيتصدون للعدو الرئيسي الذي اغتصب أرضهم، إنَّ ما عليه الأمة اليوم يختلف عما كانت عليه أمس، حيث كانت تواجه حينها التشكيك بالإسلام، ومتهم من بعض أبناء المسلمين أنفسهم أنه دين العصور القديمة، وأنه لا يصلح للعصر، أما اليوم لا يجرؤ أحد من المسلمين أن يتهم الإسلام بذلك الاتهام الذي كان.

فقبل الربيع العربي كان المسلمون مشغلين بحياة الترف والخنوع، واليوم أصبح أطفال حتى في لعبهم يقلدون المجاهدين والثوار، وأصبح الجهاد ثقافة، فجيش المجاهدين الذي يتكون اليوم في بلدان الربيع العربي، وينصهر ويتبلور في الميدان، هو الجيش الذي سيهزم إسرائيل؛ لأنه صاحب الخبرة والتجربة، صهَره ميدان الحرب، بعكس جيش إسرائيل الذي لم يخض أي تجربة حقيقية مع الشعوب المسلمة، فمهما واجه جيش المجاهدين في الشدائد من جراح، إلا أنه يربي جيلًا شديد المراس، فالضريبة لا بد منها، إلا أن النتيجة هي النصر المؤزر، فالأمة تتقدم وإن كانت تمر بشدائد، فهذه الشدائد هي

المخاض التي تمر به الأمة، فشدة ظلمة الليل تأتي قبيل بزوغ الفجر.

عندمـــا أصدرت دائرة الأمن القومي الأمريكي قبل عدة ســـنوات تقريرًا، وحددت فيه عودة الخلافة الإسلامية بعام ٢٠٢٤م لم يأت من فراغ، فأمريكا بتطورها وتقدمها لن تصدر تقريرًا كهذا جزافًا، وإنَّما ســـتكون قد اعتمدت على أبحاث علمية ودراسات منهجية، أوصلتها إلى هذا التقرير.

وقبل أمريكا نحن موعودون كمسلمين من رسول الله ﷺ بخلافة راشدة على منهاج النبوة، ومن سنة الله أن الحضارات تتداول بين الناس بدورات متعاقبة، فحضارة الغرب قد وصلت إلى التمام والكمال حسب رؤيتهم، وما بعد الكمال إلا النقصان، فنحن اليوم على مشارف انهيار الحضارة الغربية، وعلى عتبات بزوغ الحضارة الإســـلامية، ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران/١٤٠]، هذه سنّةُ الله في خلقه.

نســـتطيع القـــول الآن أنَّ الأمـــة في تقدم كبير، لـــولا الحكام المســـتبدين الذين هم وراء معظم البلاء في الأمة، وغياب روح الأمل والعمل في عقول الشـــباب، ولكن ســـتتغير الأحوال جذريًّا وبسرعة كبيرة عندما تتخلص الشـــعوب من الأنظمة المســـتبدة بإذن الله.

العرب...قوة عظمى مستقبلاً

يعيش العرب اليوم أســـوأ مرحلة تاريخية على مختلف الأصعدة الاقتصادية والاجتماعية والسياســـية، وتفاقمت هذه المشـــاكل في بعـــض الدول حتى تحولت إلى ثورات وحـــروب أهلية طاحنة تحرق

الأخضر واليابس، وشملت أبعادًا سياسية ودينية، لكن رغم قتامة هذه الصورة قد تكــون بداية تحول جديد للعالم العربي، قد تكون طفرة حضارية غير مسبوقة حسب تنظير المحللين للمستقبل، فهذا الوضع والصورة السوداء التي يرسمها عالمنا العربي اليوم، ومن باب الحقائق التاريخية التي تقر بذلك، وبقراءة ســريعة للتاريخ والتجارب التي مرت بها الأمم نصل الاستنتاج نفسه.

كلما اشتدت قساوة الحياة ومأساوية الأوضاع كلما زادت فرص التحول والازدهــار، فهذا الواقع المعاش في مختلــف الدول العربية يجعل منها بالفعل قوة عظمى مستقبلاً.

فما هي الأســباب التي تجعل من الــدول العربية قوة عظمى في المستقبل ؟

الشعوب العربية بغالبتها العظمى غير راضية على الأوضاع التي تعيشــها على مختلف الأصعدة، وتبحث عــن التغير، وهذا الرفض وعدم الرضا يعتبر قوة دافعة نحو التغير، ولعل الثورات العربية التي انطلقت في ٢٠١١ خير دليل على هذا.

إن الشــعور بعدم الرضــا يرتبط بكبرياء النفــس الذي يرتبط بمســار الدول، فذاكرة الجماعية لكل شــعب تظــل حية يرافقها التحدي الحقيقي لاســتعادتها، فالعرب كان لهم إنجازات تاريخية في كل المجالات الاقتصادية والصناعية والأدبية والفلسفة والفلك، فالإصرار على اســترجاع هــذا المجد الضائع حتمًا ســيتحقق إذا اختلفت الآليات.

فكل الأمم -انطلاقًا من الولايات المتحدة إلى روسيا إلى فرنسا إلى ألمانيا إلى الصين إلى اليابان...- عاشوا تصادمات وحروب أهلية طاحنة، والتي تحول في ما بعد إلى نهضة مجتمع بأكمله، وهذا ما يسمى في علم الاجتماع: «ضرورة البقاء».

فتفاقم الصراع والغوغاء الذي يتبدد فيما بعد، وبالتالي يختفي مفهوم العنف والانتقام، فتتحول المعركة من مجموعات فيما بينها إلى معركة شعب بأكمله، صراع مجتمع من أجل البقاء، حينها تتحدد الرؤى، وتختفي النزاعات والمصلحة الفردية، ويصبح الهدف الرئيسي «ضرورة البقاء».

إنَّ النجاح في الهدف تعقبه نهضة حضارية جديدة، تظهر من خلاله عبقرية الإنسان في الأعمار والإنشاء والابتكار، هذا الأمر الذي يرجحه المحللون، فهذا الشيء وارد في المجتمعات العربية، وخاصة التي شهدت الثورات العربية.

إنَّ أيّ نهضة تحتاج لرواد ونخبة تقود ركبها، فكل البعثات التي أرسلت إلى خارج للتعلم، هي النخبة التي هدفها تحصيل آخر ما توصل إليه الأمم المتقدمة، والعودة لتطبيقها في البلد الأم حسب ما يتماشى مع وضعها.

فالدول العربية هي من أكثر الدول التي لها عقول وكفاءات في الخارج، وإذا ما توفرت الظروف الملائمة لها في البلد الأم وعادت هذه النخب، ستدفع عجلة التطور، وستجعل من الدول العربية قوة عظمى.

كل ما ســبق ذكره من أســباب لنهضة عربية لن يكون إلا إذا كان هناك وعي وتخطيط، ففي عصــر الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي، وما توفره من ســهولة الاتصال، الذي يكون وســيلة في انتشــار الوعي بين مختلف فئات الشــباب عبر أصقاع العالم، وخير دليل وحســب الإحصائيات فإن الثورات العربيــة بزغت من مواقع التواصل الاجتماعي.

عصر المعلوماتية اختصر المســافات والحركات بين الناس، فثورة الاتصالات وســهولة وصول المعلومة شــكّلت منهجية جديدة للعالم العربي، ترســخ أفاق النهضة العربية الجديــدة على غرار النهضة الأوربية، التي ســاهمت فيها آلة الطباعة والكتابة بشكل كبير.

مستقبل الدول العربية

علَّق كثــيرون آمالًا على «الربيع العربي»، وتطلعوا إلى أن يجلب معه حكومات جديدة من شــأنها تحقيق الإصلاح السياســي، الذي يحقق مشــاركة حقيقية في الســلطة، والعدالة الاجتماعية التي تضمن توزيعًا عادلًا للثروة، يخرجهم من دائرة الفقر والبطالة، ورفع ملايين من الشــباب العربي الشعار الشــهير: «الشعب يريد إسقاط النظام» في عدة دول عربيــة، في احتجاجات وتظاهرات اندلعت عام ٢٠١١ سعيًا لتغيير نظم الحكم التي تتحمل مسئولية الأوضاع القاسية التي وصلت إليها بلادهم.

بيد أن الواقع حمل معه حروبًا وأعمال عنف وقمعًا أشـــد للذين تجـــرءوا على رفـــع أصواتهم من أجل مجتمع أكثـــر عدلًا وحرية وانفتاحًا، ورويدًا رويدًا تحولت النشوة التي رافقت تلك الاحتجاجات في الشـــوارع والســـاحات إلى خيبة أمل، وانقلبت صـــورة المظاهرات والشعارات إلى صراع مســـلح يطحن الجميع، كما حدث في سورية وليبيا واليمن.

حتى اللحظة ولسنوات قادمة سيبقى في ذهن الكثير من النخب العربية أن الربيع العربي كان مؤامرة كونية ضد العرب، لكن قلما يسأل السؤال: ما الذي أدى لكتل شعبية عربية كبيرة مكونة أساسًا من الشباب لتلبية نداء الخروج للشوارع؟ أزعم بأنه طالما لم يعم الوعي بخصوص العوامل الداخلية الاقتصادية والسياسية -بل الاجتماعية أيضًـــا- المؤدية لثـــورات الربيع العربي من شـــاكلة تضاعف أعداد السكان غير المسبوق في التاريخ العربي، وغياب الأمن وتراجع العدالة الاقتصادية والحقوقية، وزيادة المركزية الرسمية وفرديتها، وانتشار الفساد والامتيازات لدى النخب، فالربيع العربي كما عرفناه سيعود ثانية بعد زمن، إن الســـعي الرسمي في السنوات القليلة الماضية نحو سياسات ديدنها الأساســـي الأمن والجيش والبيروقراطية الضخمة والسيطرة المركزية لن ينجح؛ وذلك بسبب تجاوز المجتمعات لفكرة الدولة التي لا مكان للشعب في قاموسها.

أخطـــأ كثيرون توقع نجاح موجة الثورات العربية بضربة واحدة تســـقط رأس النظام؛ لأنهم لم يدركوا حقيقة ما يُعرف بـــ «الفعل الثوري»، وما يتـــداول من أدبيات حول «الموجـــات الثورية»، فالفعل

الثوري لا يسير في خط مستقيم، لكنه يتقدم في شكل «موجات» بين الصعود والهبوط، بين التقدم والانحسار، بين النجاح والفشل، لأسباب كثيرة أبرزها: أن إسقاط رأس النظام لا يعني إسقاط النظام؛ لأن دولة النظام الممتدة والمتجذرة في أحشاء المجتمع ومؤسساته تملك قدرات هائلة على المقاومة، بدوافع الحفاظ على المصالح والدفاع عن الذات، كما أن القوى الثورية التي تتجمع في لحظة الذروة من الفعل الثوري تعود حتمًا إلى واقعها الحقيقي من التفكك وتناقض المصالح، في وقت تفتقر فيه إلى وحدة الأيديولوجيا، أو حتى غيابها، ووحدة التنظيم، أو حتى تناقضاته، كما أن الجسد الشعب الهائل الذي أعطى للثورة معناها سرعان ما يعود لواقعه الطبيعي قبل التفجر الثوري، ويبدأ في طرح مطالبه الفئوية والحياتية، وكل تعثر أو عجز يولد سلسلة لا تنتهي من الأزمات، ناهيك عن تدخلات الأطراف الخارجية من عربية وإقليمية ودولية، كل منها تحاول إما إسقاط الثورة وإفشالها، وإما الانحراف بها إلى حيث تريد هي.

فقد واجهت الثورات العربية هذا كله في ظل تفاقم الأزمات المتجذرة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وفي ظل غياب القيادة الثورية الموحّدة، وغيبة التنظيم القوي القادر على أن يحل مكان النظام القديم، فأغلب الثورات العربية التي تفجرت إثر بعضها بعضًا ابتداءً من الثورة التونسية كانت ثورات شعبية بلا قيادة ولا تنظيم، ولا حتى رؤية موحدة، فالأحزاب السياسية القديمة كانت أغلبها قد فقدت شرعيتها بسقوط النظام وحزبه الحاكم، ولم يكن في مقدور أي منها تقديم البديل، ومن هنا جاء ظهور التنظيمات الإسلامية

لتملأ الفراغ السياسي طبيعيًا؛ لأنها كانت البديل الوحيد الذي يمتلك وحدة القيادة ووحدة التنظيم ووحدة الأيديولوجية، ناهيك عن امتلاك خلفية نضالية ضد النظم البائدة.

فالواقع عربي مأزوم، لم تستطع الثورات أن تغيره بالشكل والمضمون اللذين كانا مأمولين، لكن ما زالت الفرص والآمال تعارك مشاعر الإحباط والفشل في جدلية لم يحسم مآلها بعد.

هذا الوضع يرشح النظام العربي للمزيد من عدم الاستقرار، فالضغوط السكانية والشعبية ستستمر على البيروقراطيات الحكومية المشلولة، وهذا يعني الحاجة لدول عربية أقل تدخلًا في الاقتصاد والحياة والمجتمع، هذا الحراك لن يتوقف «حتى لو بدا أنه قد هدأ»، طالما أن الدولة تسيطر على المجتمع وتفتته قبليًا وعشائريًا ودينيًا وطائفيًا، في ظل تضخم الامتيازات الفئوية للأقلية أكانت عسكرية أم مدنية، ففي ظروف كهذه سيعاد إنتاج الشعور بالظلم والحاجة للهجرة واللجوء، وستنتشر الحروب والنزاعات والتطرف والإرهاب، الدولة الفاشلة التي نرى تعبيراتها في أكثر من ٥٠٪ من الدول العربية هي نتاج عملية تاريخية ازدادت كثافتها في السنوات القليلة الماضية.

النخب العربية الرسمية التي تعي حجم أزمة الدولة وجدت الحل حتى الآن «في ظل ظروف التراجع النفطي» من خلال أطروحات بيع القطاع العام للخاص، وهذا يعني عمليًا «في ظل غياب الحريات والشفافية والبيئة التنافسية والعدالة وفصل السلطات» بيع القطاع العام لمصالح ضيقة ولمنظومة مرتبطة بالنظام السياسي، وهذا بدوره

سيشعر كتل شعبية كبيرة بأنها تدفع ثمن الغلاء، وارتفاع تكاليف المعيشة، والتضخم، وهبوط أسعار النفط، وتردي التعليم والعلاج، وتعثر الاقتصاد، السياسات التقشفية التي طرحتها دول عربية قلما تتعامل مع الرأسمالية بصفتها نتاج عملية تنافسية في المجتمع «تتطور خارج نطاق الحكومة والنظام السياسي»، في ظل نظام ضرائبي تصاعدي وحالة عدالة وفصل سلطات متفق عليها مجتمعيًا.

إن محاولة نقل السياسات الغربية ليست الحل، فتلك السياسات وقعت في تلك الدول الغربية حيث تسود دولة القوانين الراسخة، وحيث المنافسة تسمح بالارتقاء، وحيث المجتمع في مقدمة العملية السياسية، أما في بلادنا فتتغير القوانين بين يوم وليلة، وهي خاضعة للمصالح والنفوذ والامتيازات، إنَّ تطبيق إصلاحات مشوهة قلما تتعامل مع عمق المشكلة العربية ستكون من أسباب عودة الربيع العربي بعد زمن.

وبإمكان النظام العربي أن يمارس سياسة مختلفة، فيحسن البيئة القانونية ويبني أجواء تحترم الحريات والرأي المستقل ثم يسعى نحو الشفافية والتنافس الحقيقي والديمقراطية، هذا يتطلب تنفيذ إستراتيجية تخفف على مراحل من حجم الدولة في ظل التخلص من الفساد، بما يسهم في تمتين المجتمع، وإطلاق المبادرة الخاصة ومبادرات الشباب، وهذا يتطلب قبل كل شيء سياسة أكثر تركيزًا على حوار مجتمعي واسع النطاق تشارك فيه جميع القوى الفاعلة، فالأوطان بحاجة للمجتمعات، وبلا المجتمعات وممثليها ستستمر الدولة الفاشلة بالزحف على أغلب الأمكنة العربية.

إن أبرز التحديات التي تواجه النظام العربي ومشـــهده السياسي، تتمثل بالقدرة على صياغة علاقات عربية تضامنية وتكاملية بين كل المجموعات بعيدًا عن التدخل الخارجي، فالقدرة على صياغة سياسة عربية خارجية منســقة في مواجهة التحديــات الخارجية الإقليمية والدولية، ثم إمكانية الشــروع بتفعيل برامــج التكامل الاقتصادي العربي، والمســاهمة المتبادلة في حل مشــاكل الدول العربية على قاعدة تحقيق الاســـتقرار الاقتصادي والأمني والسياسي، وتشجيع التوجه نحو جو وبيئة ديمقراطية عربية، وإعادة النظر بالتعامل مع المشــروع الصهيوني والصراع العربي الإسرائيلي وفق قواعد عربية، لكنها متقدمة على الوضع السابق، والقدرة على التعاون في تطوير اقتصــاد المجتمعات العربية وبنائهــا، وتخفيف القبضة الأمنية عن الشعوب والحياة السياســية والمدنية، والقدرة على فتح المجال لمزيد من حركة المال والعمالــة والخبرات بين الدول العربية على قاعدة الاطمئنان إلى المســتقبل، والقدرة على رســم دور عربي فاعل على المســتوى الدولي، والقدرة على تجاوز مخاطر انتشار الفوضى وفشل بعض الدول العربية ودخولها في مســارات التفتت والحروب الأهلية، ويمكن القول: إن تحدي إدارة المرحلة الانتقالية يمثل قمة التحديات بسبب انفراط قواعد الحياة العامة ونظم الأمن السابقة، وحاجتها لإعادة البناء على عجل، بوصفها الضامن لانتقال ســلمي للسلطة نحو مرحلة الديمقراطية والحرية في البلاد.

لذا وجب تمركز أولوية النظام العربي على ثلاثة مسارات:

الأول: التطوير والتحديث الحضاري النهضوي والاقتصادي العام.

والثاني: التوصل إلى صيغ لأنظمة حكم تحظى بشـــرعية شـــعبية بعيدًا عـــن التدخل الأمني.

والثالث: زيادة فرص التضامن العربي والتكامل الاقتصادي والانفتاح الحدودي ولعب دور دولي منظم ومنســـق أكثر تأثيرًا، خاصة إزاء قضايا المنطقة.

إنَّ ما حـــدث -وما يحدث الآن- من تفاعـــلات وتطورات، كانت بدايتها تفجر موجة الثـــورات العربية، ينبئ بحتمية تداعي النظام العربي الذي تأسس في أعقاب الحرب العالمية الثانية، نتيجة لتداعي أنظمة حكم مستبدة وفاسدة أسقطتها إرادة الشعوب، لكن أي بديل ســـيفرض نفسه بعد أن تســـتقر الأوضاع في الوطن العربي، سيبقى أمره محكومًا بما ســـوف تؤول إليه تلك الموجة الثورية بانتصاراتها وتعثراتها بل وانتكاســـاتها، كما ينبئ بحتمية تغير هيكلية النظام الإقليمي للشـــرق الأوســـط وأدوار القوى الثـــلاث الكبرى الفاعلة: إيران وتركيا وإســـرائيل، التي تشكل الآن قلب هذا النظام أو محوره، وخرائـــط التحالفات والصراعات التي تربط بين هذه القوى والدول العربية، وكذلك أنماط العلاقات والتفاعلات المحتملة بين النظام العربي الجديد، وذلك النظام المتوقع للشـــرق الأوسط من منظور التأثير المتبادل أو التبعية، وفرص ظهور قوة أو قوى عربية قادرة على مبادلة القوى الثلاثة الفعل والتأثير.

الربيع العربي الذي عبَّر عن نفسه في ٢٠١٠، ثم ٢٠١١ مثَّل مدرسة جديدة في منطقتنا في التغير السلمي، لكن في المرة القادمة، خاصة إن لم تنجح الأنظمة في قيادة إصلاح متشعب غير مسبوق، ستكون الشعوب قد اكتسبت درجة أوضح من الخبرة والمعرفة والنضج.

خلاصة

إن عالمنا العربي الإسلامي في حالة تدهور مستمر من جميع النواحي، رغم المحاولات المتفرقة لإعادته إلى المسار الصحيح.

إنَّ ما طرحناه من خطوات في هذا الفصل تخلص إلى أن الفرد هو اللبنة الأساسية والنقطة المحورية في عملية النهوض.

***

الفصل الثاني

ما في جعبة الآخر لنا

مقدمة

إنَّ العالم العربي الإسلامي جزءٌ لا يتجزأ من المنظومة العالمية، في ظل هذه المنظومة جلّ من فيها لا يضمر خيرًا لهذا العالم.

في هذا الفصل سنحاولُ أنْ نتقصّى لأبعد حدود ما يخبئ الآخر لهذا العالم العربي الإسلامي، وليس بضرورة أن يكون جيدًا أو حتى واضحًا.

الإستراتيجية الأمريكية في الشرق الأوسط

مفهوم الهيمنة والسيطرة على العالم، والذي يعكس في باطنه شعورًا دفينًا بالتميّز والتفوق الحضاري والثقافي، كان المحرك الرئيسي للسياسة الخارجية الأمريكية، وهو المفتاح الرئيسي لفهم هذه السياسة منذ نشأة الولايات المتحدة الأمريكية كدولة فيدرالية وحتى الآن.

كانت الولايات المتحدة الأمريكية منذ بداية القرن الجديد، قد اتبعت سياسة تدخل نشط على أساس العمل الاستباقي، أي: انتقلت من الانعزال إلى الاحتواء ومن ثَمَّ إلى الردع، ويمكن تفسير ذلك إلى ثورة في الرؤية الإستراتيجية لدور الولايات المتحدة ولمستقبل

المنطقة، نظّر لها المحافظون الجدد استنادًا إلى كتابات (كيسنجر) حول السياسة الخارجية الأمريكية ما بعد الحرب الباردة، وإلى نظرية (برنارد لويس) حول التجييش الطائفي.

طبقًا لهذه الرؤية، تصبح المهمة الأساسية للسياسة الخارجية الأمريكية ليست مجرد استخدام القوة على نحو نشط فحسب، بل إعادة تشكيل البيئة الداخلية للعديد من الدول في الشرق الأوسط، وصولًا إلى ترسيم ملامح نظام إقليمي جديد يخدم المصالح والتطلعات الإستراتيجية الأمريكية الجديدة.

دخلت الولايات المتحدة المنطقة العربية غداة الحرب العالمية الثانية، كمحصلة لعوامل عدة؛ من بينها: انحسار قوة بريطانيا وفرنسا وإمكاناتهما، ونشوء فراغ قوة، وبداية التسابق في إطار الحرب الباردة لكسب مناطق نفوذ في العالم.

شكّلت قضية فلسطين، وتاليًا الصراع العربي - الإسرائيلي، مسارًا آخر دخلت بواسطته إلى المنطقة العربية، نتيجة الدور الكبير الذي لعبته في إقامة دولة إسرائيل، وبسبب العلاقات المميزة التي نشأت بعد ذلك بين الدولتين، اتسمت السياسة الأمريكية في النظام الإقليمي العربي إبان فترة الحرب الباردة بالعوامل التالية:

- تغليب المنظور الإستراتيجي الكوني بشكل عام في التعامل مع السياسات العربية.
- التركيز على مفهوم «المسرح العربي» الإستراتيجي وموقعه من «قوس الأزمات»، وبالتالي تهميش مصالح أطراف هذا المسرح

وأهدافها وتطلعاتها، إلا بالقدر الذي يخدم المصالح الأمريكية الإستراتيجية.

- اتباع سياسة هجومية تجاه الاتحاد السوفيتي لاحتوائه وإخراجه من المنطقة، وعدم القبول بدور شرعي له إلا في حالات استثنائية.
- اتباع سياسة صدامية تجاه الأطراف العربية المعادية للمصالح الأمريكية.
- التركيز على العلاقات المميزة مع إسرائيل، بما في ذلك الحرص على تفوقها العسكري.
- الوقوف ضد عقيدة النظام العربي ومشروعاته، كالقضية الفلسطينية والوحدة العربية.

أصبح تعامل الولايات المتحدة مع منطقة الشرق الأوسط يسير وفق حاجات مصالحها التي تقتضي فرض واقع الاستقرار في المنطقة، فمثلما كان التوتر الدائم في هذه المنطقة أحد متطلبات الحرب الباردة مع الاتحاد السوفيتي، فإن الاستقرار في منطقة الشرق الأوسط خلال مرحلة حكم الرئيس الأمريكي (جورج بوش) الابن أحد المتطلبات الأساسية لمصلحة أمريكا من أجل تكريس قدرتها في الهيمنة والانتصار على العالم، وفرض شروطها على حلفائها الأساسيين في أوروبا واليابان.

وقد أحسَّت الولايات المتحدة أن الاعتماد على تنفيذ برنامجها الأمني والسياسي في منطقة الشرق الأوسط، والذي يشمل مجموعة من الأولويات الضرورية للارتباط الأمريكي في المنطقة لم يعد

كافيًا في إحداث التغيير المطلوب بالمنطقة، فهي لا ترغب في محاربة التهديـــدات التي تواجههـــا فقط، ولكن رغبتها تشـــمل أيضًا تغيير الديناميكيات الإقليمية التي تأتي بمثل هذه التهديدات، فكان عليها أن تتابعَ الركائز الإضافية في سياستها المتعلقة في دول الشرق الأوسط.

تطلع العرب وجيرانهم أن يطال رياح التغيير الذي دعمه (أوباما) تجاه منطقتهم، غير أن ازدياد ونمو التساؤلات والشكوك لدى شعوب دول منطقة الشـــرق الأوســـط قد جاء نتيجة لحاجة إدارة الرئيس (أوباما) الفعلية للتعامل في ســـياق إستراتيجية متكاملة، تقوم على مواجهة عدد من القضايا الجوهريـــة التي تحدث في المنطقة خلال هذه الحقبة الزمنية، بدءًا من الصراع العربي - الإســـرائيلي، مرورًا بالخلاف الخليجـــي الإيراني، ووصولًا إلى ربيع الثـــورات العربية في تونس ومصر وليبيا واليمن والبحرين وغيرها.

إن القوة في الإســـتراتيجية الأمريكية في الشـــرق الأوسط تقوم على السلوك الإستراتيجي الأمريكي الفعلي في هذه المنطقة، والذي يمكن الوصول إليه من خلال ملامح الأهداف الأمريكية التي تسعى لتحقيقها في ضوء المصالح الحيوية لها في هذه المنطقة؛ لما تتمتع به من مميزات إستراتيجية، حيث تنبع كافة المصالح والأهداف الأمريكية من هدفها الرئيسي المتمثل بضمان وتأكيد الهيمنة على العالم بأسره.

وقد بررت الولايات المتحدة مصالحها في هذه المنطقة بأنَّ لها عددًا من الأهداف الإستراتيجية، وضمن الجوانب السياسية والاقتصادية والأمنيـــة، بحيث جرت عملية صنع القـــرار وبناء هذه الأهداف من خلال المؤسسة المسئولة عن صنع الإستراتيجية الأمريكية التي يمكن

تقسيمها إلى: مؤسســة الرئيس، الكونجرس، مجلس الأمن القومي، وزارة الدفاع، المؤسسات الأمنية، وزارة الخارجية.

إن الإســتراتيجية الأمريكية الجديدة في الشـــرق الأوسط مثلت سلسلة من الأهداف التي سعت إليها إدارة الرئيس (باراك أوباما) إلى تحقيقها في هذه المنطقة، نتيجــة التراجع في نفوذ وتأثير الولايات المتحدة، بسبب السياســات الخاطئة التي اتبعت خلال إدارة الرئيس (جورج بــوش) الابن، والتي فرضت على الرئيـــس (باراك أوباما) أن يبادر بطرح مجموعة من السياسات التي من خلالها يستطيع التعامل بفاعلية، وبما يخدم الأهداف الإستراتيجية للولايات المتحدة في هذه المنطقــة الحيوية، كما تطلبت الانتباه الشــديد من جانب الإدارة الأمريكية إلى طريقة التعامل معها.

فإيــران تخطت العتبة النووية، وهنــاك الوضع الهش في العراق الذي يستنزف القوة المسلحة الأمريكية، وهناك الحكومات الضعيفة في لبنان وفلســطين في ظل قوة متصاعدة للميليشــيات المســلحة، والمتمثلــة في حزب الله في لبنان، وحركة حماس في فلســطين، مع غموض كبير يلف خطوط سياســات (أوباما) في الشــرق الأوسط، ولاسيما في ســاحة النزاع الإسرائيلي - الفلسطيني.

وفي هذا الإطار النظري فقد عمــل الرئيس (باراك أوباما) على إعادة ترتيب أولويات سياسته الخارجية في الشرق الأوسط، من خلال عدم الاستمرار في جعل العراق هي القضية الرئيسية كما في الأعوام السابقة لحكم إدارته، لهذا عمد بصورة تدريجية على تخفيف الوجود العسكري الأمريكي في العراق، ونقل المسئولية الأمنية إلى العراقيين،

ولكن في نفس الوقت أخذ في الحسبان أن الوضع هناك ما يزال هشًا للغاية؛ لذا ركز (أوباما) منذ بدايـــة إدارته في البيت الأبيض على أربع قضايا رئيسية تتعلق بالجانب السياسي: هي النزاع الفلسطيني - الإســـرائيلي، وفي الجانب الأمني تشمل العراق وأفغانستان، والملف النـــووي الإيراني، إلى جانب أربع إشـــكاليات هي العلاقات بين بلاده والعالم الإسلامي، وعمليات التنمية السياسية في الشرق الأوسط.

أما الإستراتيجية الاقتصادية الأمريكية في الشرق الأوسط، فتعتقد القيادات السياسية الأمريكية، بأن بسط السيطرة الأمريكية عالميًا هو مفتاح الأمان الرئيسي لقيادة الزعامة وتكريس استمرارها، خاصة بعد تبدد مشاعر الخوف من التهديدات التي كان يمثلها الوجود السوفيتي السابق كقوة عظمى منافسة، وبعد دخول حقبة العولمة المتصاعدة تحت زعامة الولايات المتحـــدة الأمريكية، فقد اعتبر الأمريكيون أن القوة الاقتصادية وليســـت القوة العسكرية هي وحدها المقياس المهم لتحديد مدى ما تتمتع به من قوة عالمية شاملة، خاصة مع محاولات تقليص المنافســـة على الساحة الدولية ســـواء في أوروبا أو في آسيا.

فسعت إدارة الرئيس (باراك أوباما) لتحقيق السياسات الاقتصادية ضمن الإستراتيجية الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط، والتي تتمثل في: التنافس الأمريكي مع الدول الكبرى في الشرق الأوسط وتأمين الطاقة.

أما بالنسبة للإستراتيجية الأمنية الأمريكية في الشرق الأوسط، حيث شـــكّل انتهاء الحرب الباردة بتفكك وزوال الاتحاد الســـوفيتي عام ١٩٩١ الفرصة الســـانحة للولايات المتحـــدة الأمريكية من أجل إعادة إحياء مشروعها بالهيمنة على العالم، عبر إقامة نظام سياسي

اقتصادي دولي خاضع لها، بعد أن كان مشـــروعًا يراود الساســـة الأمريكان بعد انتهـــاء الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥؛ لاعتقادهم بأن الأمـــور كانت مناســـبة لتحقيق ذلك بعد خـــروج الولايات المتحدة كأكبر قوة عســـكرية واقتصادية تحتكر الســـلاح النووي، مقابل ضعف القدرات العسكرية والاقتصادية للدول الأوروبية وغير الأوروبية الكبرى جراء الحرب.

ولغرض تحقيق هذه الهيمنة على العالم اســـتندت الإستراتيجية الأمريكية على مرتكزيـــن: أولهما: يقوم على تضخيم عناصر القوة القوميـــة والوصول بها إلى أعلى مراتب القوة.

إن الخطوة الأولى لتحقيق تلك الهيمنة على العالم في مرحلة ما بعد الحرب الباردة، بدأت من منطقة الشـــرق الأوسط وتمثلت بشن حرب على العراق، ومن بعدها الســـعي لخلق بؤر مناسبة للصراعات الإقليميـــة، ومن ثَمَّ التدخل في إدارتها حتى تصل إلى فرض الحلول المناســـبة لها بما يخدم المصالح الأمريكية في المنطقة، بالإضافة إلى فرض أســـاليب جديدة ترشح منطق القوة في العلاقات الدولية، غير أنهـــا واجهت تحديات كبيرة في المنطقة بعد قيامها بتهميش جميع القوى الأخرى في العالم، وربطها بأزمات داخلية سياسية واقتصادية، بعد أن بدأت للترويج إلى مفاهيم حديثة في المجال الاقتصادي، مثل الحرب الاقتصادية والتجارة العالميـــة، وإلغاء الحواجز الجمركية، وفتح الأسواق المالية والتدخل في السياسات العامة للدول عن طريق: المديونيـــة عبر صندوق النقـــد الدولي، المنح والقروض المشـــروطة سياســـيًا، والتدخل في عالم الاتصالات وثقافات الشـــعوب، وترويج

قواعد السلوك والثقافات والقيم الأمريكية للتأثير على سلوك الأفراد وتفكيرهم.

إنَّ الحالة التي وصلت إليها الولايات المتحدة جعلتها تفكر بمنطق القوة التي لا تقهر، ونجد هذا في قول أحد المفكرين الأمريكان: «أمريكا تجاوزت العالم، فمنذ أن دمر الرومان قرطاج لم تبلغ قوة الذرى حيث وصلنا».

وذهب كاتب آخر أبعد في المستقبل عندما قال: «إن القرن الثامن عشر كان فرنسيًا، والقرن التاسع عشر كان إنجليزيًا، والعشرين أمريكيًا، والقادم سيكون كذلك».

لقد استحوذت هذه المقولات على إدارة الرئيس (جورج بوش) الابن بعد انفراط الحلقات الرئيسية لنظام توازن القوى الثنائي، الذي حكم العلاقات الدولية منذ الحرب العالمية الثانية على نحوٍ مكَّنها من احتلال مكانة فريدة لا نظير لها في التاريخ الحديث، وفي مقابل ذلك كانت النتيجة الثانية للتحول الدولي هي زيادة فرص بروز قوى دولية جديدة في أوروبا وآسيا، سواء أكانت دولًا أم كتلًا كبرى اقتصادية وسياسية، تحاول ترسيخ النظام الدولي المتعدد الأقطاب، الأمر الذي جعل الولايات المتحدة الأمريكية أمام الخيارات الإستراتيجية التالية:

- التعاون والتعددية في خيار إدارة مشتركة لنظام عالمي في طريقه إلى التعددية القطبية بين الدول الكبرى.
- تبني سياسة تقليدية لتوازن القوى مشابهة للسياسة البريطانية في القارة الأوروبية في القرن التاسع عشر.

- إبقاء القطبية الأحادية من خلال إستراتيجية الهيمنة.

وفي ظل هـــذه البيئة الدولية، والتوجـــه الأمريكي فيها للهيمنة على العـــالم، كان من الطبيعـــي أن تتأثرَ الأقاليـــم ذات الأهمية الإستراتيجية، وفي مقدمتها منطقة الشرق الأوسط ذات الحساسية العاليـــة لأي تأثيرات بالتحولات الإســـتراتيجية في هيكلة المنظومة الدولية، لكونها ارتبطت بعلاقة تأثير متبادل مع النظام الدولي منذ نهاية الحرب العالمية الثانيـــة، فالتوازنات العالمية تؤثر في التوازنات الإقليمية وبالعكس، فكانت التحولات التي شـــهدها التوازن العالمي من اختفاء أحد أقطابه لابد أن تؤثر نتائجه وبقوة في هذه المنطقة، وفي قلبها العراق من خلال انعدام هامش المناورة المستقلة أمام بعض الدول العربية، وخاصة ما يســـمى بدول المواجهة، فقد كان الاتحاد الســـوفيتي في عصر التوازن الثنائي يمثل أحـــد البدائل أمام بعض الدول العربية على الأقل لتقليص مســـاحة الهيمنة الغربية، فضلاً عن تراجع الـــدور العربي، والقدرة العربية في التأثير على النســـق الدولـــي، مما أدى إلى التراجع في مدى الاهتمام بقضاياها بســـبب زيادة التبعية للولايات المتحدة علـــى البيئة الدولية بعد الانهيار.

عالم (آل روتشيلد)

«دعوني أصدر وأتحكم في عملة بلد ولن يهمني بعد ذلك أمر من يضع القوانين» (مائير روتشيلد).

الثراء الفاحش الدهاء المفرط، والسلطة المطلقة اجتمعت في عائلة من طراز آخر، عائلة تخطــت كل الأعراف وتجاوزت كل القوانين حتى سادت العالم، وأحكمت قبضتها عليه، عائلة روتشيلد اليهودية.

فمن هي عائلة روتشيلد؟

هي عائلة ذات أصول يهودية ألمانية، بلغ صيتها أرجاء العالم لقوة نفوذها وثرائها الذي لم يســبق له مثيل، إذ تملك فعليًّا نصف ثروة العـــالم، وإن تكلمنا بلغة الأرقام فهي تمتلك ما يعادل ٥٠٠ تريليون دولار أمريكي، مؤســس هذه العائلة هو (إســحق إكانان) أما لقَب (روتشــيلد) فيعني في حقيقته: «الدرع الأحمر» في إشــارة إلى «الدرع» الذي ميَّز باب قصر مؤســس العائلة في فرانكفورت في القرن ١٦.

كيف سيطر آل روتشيلد على الاقتصاد العالمي؟

التخطيط المحكم والدهاء الخارق كان لبنة زحف (آل روتشيلد) إلى أقطار العالم ومؤسســاته المختلفة، ففي عــام ١٨٢١م قام تاجر العملات القديمة (ماجيراشيل روتشيلد) بإرسال أولاده الخمسة إلى كل من إنجلترا وفرنســا وإيطاليا وألمانيا والنمســا، على أن تكون مهمتهم الســيطرة على النظــام المالي لأهم بلــدان العالم آنذاك، وذلك عبر تأســيس كل فرع من العائلة لمؤسســة مالية، ومن ثَمَّ تتواصل هذه الفروع وتترابط بشــكل يحقق أقصــى درجات النفع والربح لأبنــاء الجالية اليهودية في العالم كلــه، كما ألزم أبناءه بالزواج من يهوديات من عائلات ثرية؛ لضمان المحافظة على الثروة وعدم ضياعها.

يلقب المصرفيون هذه العائلة بلقب: **Money Master** أو «أنبياء المال والسندات»، أما الحروب فقد شكلت دورًا بارزًا في زيادة ثروتهم، إذ استطاعوا بمكرهم استغلال ظروف أي حرب بما يصب في صالحهم وحدهم، هم تجار حروب بكل ما في الكلمة من معنى.

«فلنشعل الحروب.. ونجني الملايين» القاعدة التي اتبعها (آل روتشيلد) لتوسيع ثروتهم، فكانت الحروب بالنسبة إليهم تجارة مربحة واستثمارًا ناجحًا، فخلال «معركة وترلو» التي انتهت بانتصار إنجلترا على فرنسا علم الفرع الإنجليزي بذلك من خلال شبكته المعلوماتية قبل أي شخص في إنجلترا، وكان مالك هذا الفرع المصرفي (ناثان روتشيلد)، الذي جمع أوراق سنداته وعقاراته في حقيبة ضخمة ووقف بها مرتديًا ملابس رثة أمام أبواب البورصة في لندن قبل أن تفتح أبوابها، وما أن فتحت البورصة أبوابها حتى دخل مسرعًا وباع كل سنداته وعقاراته، ونظرًا لعلم الجميع بشبكة المعلومات الخاصة بمؤسسته، ظنوا أن المعلومات وصلته بهزيمة إنجلترا، فأسرع الجميع ببيع سنداتهم وعقاراتهم، أما (ناثان) فقام من خلال عملائه السريين بشراء هذه السندات والعقارات بأسعار زهيدة، وقبل الظهر وصلت أخبار انتصار إنجلترا على فرنسا، فعادت الأسعار إلى الارتفاع، وبدأ يبيع ما اشتراه محققًا بذلك ثروة طائلة.

من شدة دهائهم دعم الفرع الفرنسي لديهم (نابليون) في حروبه ضد النمسا وإنجلترا وغيرها، بينما أخذت فروع (روتشيلد) الأخرى تدعم الحرب ضد (نابليون) في هذه الدول، على أن تكون النتيجة النهائية هي تحقيق ما فيه مصلحة اليهود.

وقد ساهمت عائلة (روتشيلد) في بناء وامتلاك قناة السويس، فعائلة (روتشيلد) كانت هي الداعم والمؤثر الرئيسي على الحكومة البريطانية من أجل اتخاذها قرار شراء أسهم في قناة السويس.

في العشرينيات من القرن التاسع عشر كانت البرازيل تسعى للاستقلال عن البرتغال، في وقت تعددت فيه المعارك بين الطرفين، في النهاية وافقت البرتغال على استقلال البرازيل شريطة أن تقوم بدفع تعويض تبلغ قيمته ٢ مليون جنيه إسترليني كرسوم للحكومة البرتغالية، فقام (ناثان روتشيلد) بتمويل قيمة الرسوم هذه خصوصًا مع وجود اتفاقية أخرى تقضي أن البرازيل هي التي تتحمل الديون الخاصة بالحكومة البرتغالية لصالح (ناثان روتشيلد)، وبالطبع مثل هذا الاتفاق فائدة كبيرة لعائلة (روتشيلد)، التي استفادت من قيمة الفوائد على هذه الديون.

ولأن العائلة كانت لا تسمح لأحد بأن يقف عائقًا أمام تحقيقها لمصالحها، فقد كانت سببًا في قتل ستة من الرؤساء والحكام منهم: (إبراهام لينكولن)، و(تايلور)، و(هاريسون)، و(جاكسون)، و(غارفيلد)، و(جون كنيدي)، و(قيصر روسيا)، والكثير من أعضاء الكونجرس وأصحاب المصارف.

«وعد بلفور» الوعد المشئوم الذي كان سببًا في نكبة الفلسطينيين حتى يومنا هذا، فقد لعب (آل روتشيلد) دورًا هامًّا في إتمام المخطط الصهيوني، وإقامة دولة يهودية على أرض فلسطين، وكان ذلك عبر شبكة العلاقات الواسعة لهذه العائلة مع ملوك ورؤساء الدول، ومن أبرزهم البيت الملكي البريطاني، كذلك وصول بعضهم إلى

عضوية مجلس النـــواب في دول مختلفة، إضافة لدعمهم لبريطانيا بإقراضها مبلغًا ضخمًا بعد أن أوشـــكت على الهزيمة أمام ألمانيا في الحرب العالمية.

لم تؤيـــد العائلة فكرة (هرتزل) بإقامة دولـــة يهودية في البداية، لكـــن حدث تغير في توجه (آل روتشـــيلد) بســـبب هجرة مجموعات كبيرة من اليهود إلى بلاد الغرب الأوروبي، فهذه الأخيرة التي رفضت الاندماج في مجتمعاتها الجديدة، ممًّا ولد مجموعة من المشـــاكل، فكان الحل بإبعاد هذه المجموعات عن منطقة المصالح الاســـتثمارية لبيت (روتشيلد).

و الســـبب الثانـــي: ظهـــور التقريـــر النهائي لمؤتمـــرات الدول الاســـتعمارية الكبرى، الذي يقرر أن منطقة شمال أفريقيا وشـــرق البحر المتوســـط هي الوريث المحتمل للحضارة الحديثة، ونظرًا لأنَّ هذه المنطقة تتسم بالعداء للحضارة الغربية، كان يجب العمل على تقســـيمها وإثارة العداوة بين طوائفها، وزرع جسم غريب يفصل بين شرق البحر المتوســـط والشمال الأفريقي.

كان لعائلة (روتشيلد) دور رئيسي في تمويل البنية التحتية للدولة الصهيونية، حيث قام (جيمس روتشيلد) بتمويل بناء مبنى الكنيست الإسرائيلي، وتقديمه هدية للدولة الصهيونية، وخارج غرفة الرئيس تم عرض رســـالة بعثتها إحدى ســـيدات عائلة (روتشيلد) إلى رئيس الوزراء السابق (شيمون بيريز)، والتي قامت فيها بالتبرع لإقامة مبنى جديد للمحكمة العليا.

منذ نشـــأتها أقامت هذه العائلة عدة شـــركات لبناء ســـكك حديديـــة في كافة أنحاء أوروبا، كما ســـلموا فيمـــا مضى قرضًا لحكام مصر لبناء ســـكك حديدية من الإســـكندرية إلى السويس، كما عملت مؤسسات (روتشيلد) في مجال الاستثمارات الثابتة مثل: مصانع الأسلحة، الســـفن، الأدوية، شركة الهند الشرقية، وشركة الهند الغربية.

وهي التي كانت ترســـم خطوط امتداد الاســـتعمار البريطاني والفرنســـي والهولندي وغيره، كما تمتلك ثلث الماء العذب بالكرة الأرضية برقم ثابت وليس عن نسبة متغيرة، وتمتلك معظم البنوك المركزية العالميـــة والبنك الفيدرالي الأمريكـــي، ومحطة CNN، وكذلك هوليود عبر ملكيتها للأقمار الصناعية، وحق شراء البث، وبهذا بسطت سيطرتها على الإعلام لقلب الحقائق في أذهان الناس، وطبـــع الصورة التي تريدها فقط في العقول.

هذه الســـيطرة الاقتصادية والإعلامية التي سمحت لهم الدخول بشراســـة إلي المعترك السياسي في جميع الدول التي لهم بها مصالح إستراتيجية، وكل هذه التكوينات المتعددة تخدم فيما بينها بعضها البعض، وتنســـق لخدمة أهدافهم وأهداف طائفتهـــم اليهودية في الدول الأوروبية، ودعم إســـرائيل سياســـيًّا واقتصاديًّا وعسكريًّا بما يضمن تفوقها على الدول العربية، حتى لو كانت الوسائل في بلادنا هي زرع الفرقة والحروب.

هل نجحت إسرائيل في تنفيذ بنود وثيقة «كيفونيم»؟

قبل ٣٥ سنة من الآن نشرت صحيفة «كيفونيم» خطة الصهاينة لبناء الشـــرق الأوسط الجديد، كما حلم به (شمعون بيريز) وبقية زعماء إسرائيل بتفتيت الوطن العربي إلى دويلات ضعيفة لا قوة لها ولا حول، تكون ضائعة مشتتة.

قامت صحيفة تصدرها المنظمة الصهيونية العالمية بنشرها باللغة العبرية بعام ١٩٨٢م، وتم ترجمتها إلى اللغة العربية، وتتكون الوثيقة من ١١ بندًا.

وقد جاء في الوثيقة -يمكن قراءتها بالعربية من ترجمة الدكتور (عصمت ســـيف الدولة)- أنَّ تكريس اللغـــة الأمازيغية في الجزائر بخاصة والمغرب العربي بعامة يعدّ أمرًا ضروريًّا لإشغال تلك المنطقة، ولتقليل الانتماء العربي، تمهيـــدًا لإبعاد تلك المنطقة العربية عن الصراع العربي الصهيوني، وتشـــير الوثيقة إلى أنه بعد إخراج مصر من ســـاحة الصراع، فإن المطلوب هو إخـــراج دولتين كبيرتين هما العراق وسوريا، إضافة إلى لبنان، الذي يشكّل نقطة جذب لتنظيمات مسلحة قد تهدد إسرائيل في أي وقت.

كان الخلاف هنا حول الأولويات والتفاصيل، وقد استقر الرأي أخيرًا على البدء بتفكيك العراق، وذلك بتقسيمها حسب الأهواء الصهيونية إلى دولة شـــيعية وأخرى سنية، إضافة إلى انفصال إقليم كردستان، وبالتوازي مع ذلك تم إيقاظ فتنة سنية شيعية ما يسهّل

عملية فصل المناطق العراقية، ومطالبة الكثير من السياسيين باتحاد فدرالي، وهو الأمر القائم اليوم، وإن ليس بشـــكل رسمي معلن، وتم تنفيذ هذا البند بنجاح بيّن وصريح.

وتم الانتقال إلى سوريا وجرى كل شيء وفق ما تم له من تخطيط مسبق، وتمت شيطنة النظام السوري أكثر من أي نظام عربي، والعمل في هذه الأثناء على تقسيم لبنان إلى دويلات طائفية صغيرة متصارعة.

ترى الخطة الإســرائيلية أنه يجب التركيز على الانقســامات العرقيــة والدينية في دول العالم العربــي، والتي تقدرها بحوالي ١٩ دولة، واصفة إيّاها بأنها مثل البيت المؤقت والذي لا يقوم بناؤه على أســاس قوي، وإنَّ بــثَّ الكراهية بين أصحاب هــذا البيت من خلال الخلافات أو الانقسامات هو الســبيل الأفضل لتغيير معالم وحدود الدول العربية الحديثة.

إنَّ العالم العربي الإسلامي هو بمثابة برج من الورق أقامه الأجانب من فرنســا وبريطانيا في العشــرينيات، دون أن توضع في الحسبان رغبات وتطلعات ســكان هذا العالم، ولقد قســم هــذا العالم إلى ١٩ دولة كلها تتكون من خليط من الأقليات والطوائف المختلفة، والتي تعادى كل منهمــا الأخرى، وعليه فإن كل دولة عربية إســلامية معرضــة اليوم لخطر التفتت العرقــي والاجتماعي في الداخل إلى حــد الحرب الداخلية، كما هو الحال في بعض هذه الدول (العراق، سوريا، لبنان..)، وإذا ما أضفنا إلى ذلك الوضع الاقتصادي، يتبين لنا كيف أنَّ المنطقةَ كلَّها في الواقع بناء مصطنع كبرج الورق، لا يمكنه التصدي للمشــكلات الخطيرة التي تواجهه.

وما يجري في العراق وفي سوريا حاليًا وما جرى في السودان ومصر ما هو إلا تطبيق لبنود هذه الوثيقة، تراجيديا كارثية حطت رحالها في عالمنا العربي من شــرقه إلى غربه، وكل دولة تحاول لتقليل قدر الإمكان من خسائرها الراهنة والمستقبلية.

لم تعد فلســطين أيقونـــة العالم العربي كمـــا كانت من قبل، أصبح الحديث في القضية الفلســطينية هامشًا لا متنًا أساسيًّا، ولا يكاد أحد يتذكر هذه الفلســطين إلا حين تشن إسرائيل عدوانًا أو ترتكب مجزرة جديدة، حينها نستخرج طقس العويل من داخلنا، ثم ننسى ونعود إلى متابعة هذه التراجيديا التي تبدو مستعصية وأبدية.

من طبيعة الحياة أن كلَّ حكومة تبحث عن مصلحتها الخاصة والسياســة بلا أخلاق -غالبًا-فرســم الغرب هــذه الحدود، ووضع حكومات تخدم مصلحته، فكل الأمر مصالح، ورغم أن هذه الحكومات -غالبًا-لا تهمها مصالح شــعوبها، ولا تسعى للنهضة والعدل، فهذه الحكومات الفاسدة القمعية المستبدة لا تعبر عن ضمير شعوبها، إلا أن بعض الصهاينة والأمريكان أرادوا إضعاف المنطقة أكثر، فجاءت المخططات والاقتراحات لإعادة تقســيم العالم العربي -على أساس طائفي غالبًا-لكن إرادة الأعداء شــيء وإرادة الشعوب شيء آخر.

أكاذيب بغطاء ديني تهويدي

عام تلو الآخر، وخاصة في شــهر أبريل (نيسان)، الذي يُعتبر أسوأ فترة على المســجد الأقصى، هذا الشــهر يكون شــاهدًا على أوسع

تحضيرات وترتيبات من جانب المنظمات الاستيطانية والتهويدية لاقتحام المسجد، وإقامة شعائر تلمودية فيه، بحماية قوات الاحتلال.

فخلال الموسمين: عيدا «الفصح» و«العرش» العبريين، يصل تدنيس حائط البراق وساحاته إلى أعلى المستويات؛ إذ يختار الاحتلال الصهيوني يومًا واحدًا من كلا العيدين؛ لاستعراض تلمودي، يطلقون عليه اسم: «بركة الكهنة»، يشارك فيه عشرات الآلاف، تتقدمهم قيادات دينية في «الربانوت» الإسرائيلية منهم «الراب» الرئيسي الأشكينازي، و«الراب» الرئيس الشرقي، ومئات الحاخامات.

فما السر وراء التصعيد الأمني الكبير للاحتلال الإسرائيلي، خاصة هذه السنة، في حق أبناء القدس والمسجد الأقصى، والذي يتزامن مع احتفالات بأعيادهم اليهودية؟

ترجع تداعيات «عيد الفصح» اليهودي على المسجد الأقصى إلى المزاعم الإسرائيلية الكبرى بوجود الهيكل تحت قبة الصخرة، ووجود «أمر توراتي» بضرورة إعادة بناء الهيكل المزعوم إذا توفرت الظروف؛ إذ يستمر هذا العيد لسبعة أيام، يأكلون فيها «الخبز بلا خميرة»، وهذا راجع -حسب الإسرائيليين- إلى «أنهم عندما تاهوا في سيناء، بعد عبادة العجل، لم يكن معهم قمح ولا طحين».

كما تقوم طواقم بجمع قصاصات ورقية تحتوي على طلبات ودعوات وأماني يضعها الزوار بين حجارة -ما يطلقون عليه- «حائط المبكى»، المسمى الاحتلالي الباطل لحائط البراق، والتحضير والترتيب لهذه الأعياد -يتم مسبقًا- بعملية تنظيف شاملة لبلاط

ســـاحة البراق، التي هي في الأصل «حي المغاربة» الإسلامي الوقفي، الذي هدمه الاحتلال في ١١ يونيـــو (حزيران) ١٩٦٧، بعد أربعة أيام من احتلال شرقي القدس والمسجد الأقصى، وهدموا الحي بأكمله، وتم تحويله إلى ساحة صلاة يهودية، تعتبر أكبر «كنيس» يهودي في العالم، وقد تم الادعاء أنه «حائط المبكى»؛ باعتباره من بقايا أسطورة هيكلهم المزعوم، حيث يبكون عنده على خراب هيكلهم، متمنين إعادة بنائه سريعًا، على حساب، وأنقاض المسجد الأقصى.

حســـب ادعاءات الإســـرائيليين، فإن «بركة الكهنة» هي «مناسبة اخترعها أحد الكهنة الإســـرائيليين، عام ١٩٧٠؛ على خلفية أحداث جســـام، عصفـــت بالاحتلال الإســـرائيلي، خلال مـــا عرف بحرب الاســـتنزاف»، وبحثوا لهـــا عن مرجعيات دينيـــة تلمودية، وهي في الأســـاس تجمّع يدعو إلى «الحفاظ على دولة إسرائيل وشعبها، أمام عاتيات ومصائب الزمان».

وتوافق «بركة الكهنة»، كل ســـنة يوم ٢٥ أبريل (نيسان) وسط أيـــام عيد الفصح العبري، وتنطلق رسميًا بصلاة وشـــعائر تلمودية صباحية، في الســـاعة ٨:٤٥، وتستمر بمراسيم حاشدة، حتى الساعة ١٠:٣٠، بالإضافة إلى مراســـيم اســـتقبال أخرى، كتقديم القرابين وحرقها، فحســـب زعمهم: «إن (الإله) يتلذذ برائحة حرق القربان، وأن اليهـــود كانوا يتقربـــون إلى الله بهذه الذبائـــح في عهد النبي موســـى»، ولذلك فهم يذبحونها في هذا العيـــد، قرب ما ادعوا أنه الهيكل المزعوم داخل الأقصى.

كما أن كبير الحاخامات المخول الوحيد للدخول إلى ما يسمى «قدس الأقداس»، وتقديم القربان، التي هي عبارة عن دجاج وحمير، وأحيانًا خنازير، يحملونها فوق رءوسهم؛ «ليغفر الله ذنوبهم، التي اقترفوها طوال العام»! ويتخلل هذه الاحتفالات بـ«عيد الفصح» طقوسًا تلمودية، بالرقص والصراخ، عند «باب المغاربة»، و«باب السلسلة» - من أبواب المسجد الأقصى - إضافة إلى زيارة حائط البراق، ووضع قصاصات من الورق بين طياته تحتوي على أدعية بنصرهم.

وعرفت هذه السنة تصعيدًا أمنيًّا كبيرًا، قبيل انطلاق هذا الاحتفالات من طرف الاحتلال، وذلك بشنّ حملات اعتقال، وأبعاد واسعة للمقدسيين؛ وهذا بهدف تفريغ المسجد الأقصى, إضافة إلى اقتحامات واسعة للمستوطنين لساحات المسجد الأقصى.

كما كثفت منظمات الهيكل المزعوم عملها؛ إذ بعثت بالرسالة إلى رئيس الحكومة الإسرائيلي (بنيامين نتنياهو) يوم الرابع من أبريل (نيسان) بهذه السنة، طلبت فيها تأمين ذبح القرابين داخل الأقصى في «عيد الفصح», زاعمة أن هذا العام هو الأنسب للقيام بهذه المناسبة, وتسعى هذه المنظمات لتقديم القرابين جنوب شرقي «قبة الصخرة» داخل المسجد, وقد جاء في رسالتها أيضًا أنها وضعت اللمسات الأخيرة والتحضيرات اللازمة لهذا الأمر, داعية إلى ما زعمت أنه «تحقيق حقوق اليهود الدينية في جبل الهيكل، ومن ضمنها إقامة هذه الشعيرة اليهودية المهمة».

فهذه سنة ٢٠١٦م شهدت القدس وخاصة المسجد الأقصى المبارك، خلال الاحتفالات بـ«عيد الفصح» اليهودي تصعيدًا أمنيًا

غير معهود من اعتقالات، وإبعاد للمقدسيين، واقتحامات جماعية لساحات المسجد الأقصى المبارك, فهذه الاقتحامات تتم بقوة السلاح والاحتلال, تحت غطاء «زيارة», وما يجري -على أرض الواقع- هو اقتحام.

نحو ١٩٠٨ مستوطن وعنصر احتلالي اقتحموا ودنسوا المسجد الأقصى، خلال شهر أبريل (نيسان) ٢٠١٦، وتوزعوا على النحو التالي: ١٧٣١ مستوطن ومن الجماعات اليهودية, ٦٧ من عناصر المخابرات وضباط قوات الاحتلال, ١١٠ من المرشدين والطلاب اليهود.

فيما شهد الأسبوع الأخير من شهر أبريل (نيسان) أعلى نسبة اقتحامات للمسجد الأقصى، الذي يتزامن مع أسبوع الفصح العبري؛ إذ بلغ عدد المقتحمين ١٠٢٠، من بينهم ١٠١٢ مستوطن.

ويعتبر عدد المقتحمين، في شهر إبريل (نيسان) هذه السنة الأكبر، مقارنة مع السنوات الماضية؛ إذ بلغ عددهم في أبريل ٢٠١٥م نحو ١٣٩٨ مستوطن، وفي أبريل ٢٠١٤م بلغ عددهم ١٢٠٢ مستوطن.

أما على مستوى إحصائية الثلث الأول من العام الحالي، فقد بلغ عدد المقتحمين نحو ٤٨٤٠ على النحو التالي: يناير (كانون الثاني): ٥١١, فبراير (شباط): ١١٤٩, مارس (آذار): ١٢٧٢, أبريل (نيسان): ١٩٠٨, وذلك يُعتبر الأعلى على مستوى عدد المقتحمين، مقارنة بالثلث الأول من الأعوام الماضية؛ إذ بلغ عدد المقتحمين في نفس الفترة من العام الماضي ٤٤٨٩ مستوطن, بينما بلغ عددهم ٤٢٣٢ مقتحم في الربع الأول من عام ٢٠١٤م.

وبهذا فإن الاحتلال الإســـرائيلي يســـتغل أية مناسبة توراتية، أو غير ذلك، لاقتحام المسجد الأقصى على أوسع نطاق، وذلك بهدف إيجاد موطئ قدم لهم داخل الأقصـــى، يمكن تطويرها في كل عام عن العام الذي سبقه.

كل هذه التحضيرات الســـرية والعلنية التي تسبق الاحتفالات بالأعيـــاد اليهودية، وما يتبعها من طقوس وتداعيات على المســـجد الأقصى المبارك، ولا تحرك الأمة العربية الإســـلامية ســـاكنًا!

كيف أثر الاحتلال الصهيوني على الاقتصاد الفلسطيني؟

فلســـطين ذلك البلد الصغير المكبل بنـــار الاحتلال الصهيوني، الـــذي يمارس عليه كل الأســـاليب للحدّ من نمـــوه ضاربًا عرض الحائط كل القرارات الدولية، فعلى مدار ثمانية وستين عامًا خلت، خلف هذا الاحتلال المتســـلط آثارًا جسيمة على الوضع الاقتصادي والاجتماعي، فقد واجه الشعب الفلسطيني تدهورًا كبيرًا في تنمية أوضاعـــه الاقتصاديـــة والاجتماعية، حيث إن ممارســـات الاحتلال الإســـرائيلي تركزت على هدم كل ما يمكن أن يســـاعد في تنمية الظروف الحياتية، أو تحســـين المعيشـــة للفلســـطينيين، ولعب هذا الاحتلال الدور الأكبر على مدار عدة عقود في خلق جميع المعوقات في طريق تحقيق تنمية مســـتدامة في فلسطين.

فالسياسات الإسرائيلية المتعددة ترمي إلى تدمير أي نجاح يحققه الاقتصاد الفلسطيني، فالإغلاق الشامل للمناطق الفلسطينية، وتقطيع أوصال المناطق الفلسطينية، وإقامة الحواجز العسكرية ومنع الحركة، وفصل محافظات الضفة الغربية عن قطاع غزة، ومنع الاستيراد والتصدير للمناطق الفلسطينية، وغلق المعابر الدولية (الكرامة، رفح، المطار)، ومنع تنقل الشاحنات الفلسطينية التجارية بين المحافظات، بالإضافة إلى حرمان السلطة الفلسطينية من الإيرادات الجمركية، وتجميد المناطق الصناعية والتجارية على خطوط التماس، وهذا ما أدى إلى تعطيل قوى الإنتاج، وأدى إلى ارتفاع نسبة البطالة إلى أكثر من ٦٠٪، وارتفاع نسبة الفقر وما يترتب عليها من آثار سلبية.

ومن الملاحظ أن المنح والمساعدات الدولية المالية لم تستغلّ جيدًا في تعديل وتحسين بنية الاقتصاد الفلسطيني ومساعدته على فكِّ الارتباط مع الاقتصاد الإسرائيلي، هذا الارتباط الكامل كان نتيجة لربط العمالة الفلسطينية بالسوق الإسرائيلية، وحصر مناطق التصدير بنقاط العبور وعبر الخط الأخضر الذي فرضه الاحتلال بين المناطق المحتلة عام ١٩٤٨م، والمناطق المحتلة عام ١٩٦٧م، وفرض ضرائب مرتفعة على التجار، وفرض غرامات هائلة في حال تأخر التاجر في دفع وتسديد قيمة الضرائب المفروضة عليه.

من خلال هذه العوامل أصبحت التنمية بجميع أشكالها عملية شبه مستحيلة مع هذه التبعية الكاملة للاقتصاد الإسرائيلي، حتى أن العملية التنموية تصاب بالشلل حسب الرغبة الإسرائيلية، وهذا يمنع

تقدم الوضع الاقتصادي الفلسطيني من التقدم وتغطية احتياجات أفراد المجتمع الفلسطيني، ومع كل هذه المعوقات كانت هنالك معوقات أخرى مارسها الاحتلال الإسرائيلي، وهي معوقات تعجيزية من خلال إعاقة الطاقة التسويقية الداخلية للمنتجات المحلية.

مدى تأثير إجراءات الاحتلال الإسرائيلي ضد الانتفاضة الثالثة على الاقتصاد الفلسطيني:

وجاءت الانتفاضة الثالثة، وزادت أساليب الاحتلال تعسفًا، فخلال الشهور الثلاثة الأخيرة تكبد الاقتصاد الفلسطيني خسائر كبيرة؛ نتيجة سلسلة الإجراءات التي اتخذتها إسرائيل ضد هذه الانتفاضة.

فقد طالت الخسائر مختلف القطاعات الاقتصادية، ونتجت في أغلبها عن الحصار الذي فرضته سلطات الاحتلال، وإغلاق شوارع ومداخل المدن، وإخضاع الفلسطينيين لإجراءات مشددة في تنقلاتهم بين المحافظات الفلسطينية، وخاصة ذات الثقل الاقتصادي، ومنها: مدينة الخليل جنوبي الضفة الغربية.

ففي القدس وبيت لحم والخليل بشكل خاص، كان التأثير مباشرًا، وخسائر كبيرة في قطاع الأعمال، وتراجع أعداد العاملين داخل إسرائيل، والمقدر عددهم بنحو ١١٢ ألفًا؛ نظرًا لأن العمال أصبحوا غير آمنين وغير راغبين في الوصول إلى أماكن عملهم، أما قطاع التجارة الداخلية فإنَّ القيود على التنقل بين المحافظات أدت إلى تراجع التبادل التجاري، وأعداد فلسطينيي الداخل الذين

كانـــوا يتســـوقون من مدن الضفـــة بنحو ملياري دولار ســـنويًا.

ففي مدينة القدس تحديدًا أدت الإغلاقات الإسرائيلية إلى تراجع أعداد المصلين في المســجد الأقصى، فأصبحت أسواق المدينة خاوية، و٦٠٪ من محلاتها مهددة بالإغلاق، أما في الخليل نسبة التراجع في قطاع الأعمال في المدينة في ظــل الأحداث الأخيرة بلغت ٥١٪، هذه المدينة تشــكل ما نســبته ٤٠٪ من الناتج المحلي الفلسطيني، حيث انخفاض عدد الزبائن من داخل المحافظة بســبب الإغلاقات بنسبة ٥٤٪، وانخفاض القادمين من محافظات أخرى بنسبة ٧٢٪. ناهيك عن تراجع نســبة اســتيراد المواد الخام بنحو ٣٦٪، في حين تراجعت نسبة التصدير بنحو ٤٠٪، والمبيعات للزبائن من المحافظات الأخرى بنحـــو ٤٤٪، والمبيعات إلى قطاع غزة بنحو ٥٠ ٪.

إن الظـــروف الراهنة أثـــرت على الحيـــاة الاقتصادية بمختلف جوانبها، حيث انخفض الاســـتثمار الداخلـــي والخارجي، وتراجع الإقبـــال على الاقتراض مـــن البنوك بغرض الاســـتثمار، ومعظم القروض حاليًا هي قروض اســـتهلاكية لا قيمة اقتصادية لها، مما يشكل عبئًا على البنوك التي تكلفها الودائع غير المستغلة كثيرًا مع أنها لا تستفيد منها.

في ظل هذا الواقع الحالي سيحاول المواطن الفلسطيني التعايش معه نتيجـــة تعوده عليه، لكـــن من الضروري وجـــود ضغط عربي ودولي على إسرائيل لدفعها للاستجابة للقرارات الدولية! والسماح للفلسطينيين باســـتغلال مواردهم في أراضيهم.

الإرهاب..

صُبغت صورة العالم العربي الإسلامي اليوم بلون الدم، بدم الأبرياء من أطفال ونساء وشيوخ، وكثر الحديث عن الإرهاب, فهناك أناس من حملوا السلاح للجهاد ضد المحتلين أو الطغاة, كما قام أناس للقتال ضد هؤلاء المجاهدين، وكل طرف يتهم الآخر بالإرهاب، فهذا ولّد نوع من الخلط والالتباس في تميز الإرهاب، إذن ما الإرهاب؟ وما علاماته؟ وكيف يمكن التعامل مع الإرهابيين؟

وللإجابة عن هذا التساؤل لزم أولاً تحديد المعاني وتعريف المصطلحات، حتى نستطيع التقييم بأسلوب علمي، فهذا المصطلح -أي: الإرهاب- يستعمله الجميع ضد الجميع.

فالطغاة والمستبدون يطلقونه على كل من خالف سياستهم، حتى لو لم يحمل السلاح، ومن حمل السلاح بحقٍّ وباطل يطلق الإرهاب على كل خصومه، حتى المجاهدين الآخرين.

فالتعريفات التي وضعت لهذا للمصطلح الإرهاب تخلو من علمية، فكل تعريف وضع له فهو يميل لهوى صاحب التعريف، وهذا طبعًا ليوجّه الأمر لمصالحه، وهذا هو تمامًا ما ينطبق على إسرائيل، التي تسمي المقاومة الفلسطينية ضد الاحتلال الصهيوني إرهابًا.

وكتعريف لمصطلح الإرهاب، فهو: القتل المتعمد للأبرياء، أو إلحاق الأذى بهم جسديًا أو نفسيًا أو لممتلكاتهم لخدمة أغراض خاصة، سواء كانت سياسية أو مالية أو دينية أو غيرها.

ومن هـــذا التعريف تخرج الجرائم التي تُرتكـــب لأهداف مالية؛ كالسطو والسرقات، وجرائم الحروب التي ترتكب لأهداف سياسية؛ مثـــل: المعارك بين الجيوش، وما تخلفه من أذى جســـدي ونفســـي وخـــراب، ويدخل أيضًا في هـــذا التعريف للإرهـــاب: تدمير المباني والمصانع وغيرها، حتى ولم يحدث فيها القتل، وقد يكون هذا الإرهاب من أشخاص أو جماعات، أو من أنظمة وحكومات ضد شعوبها، كما هو الحال اليوم.

فالإرهـــاب ليس بجديد، فقـــد تنبَّأ به النـــبي ﷺ، وظهر في زمن الخلفاء الراشـــدين متمثلاً في فرقة الخوارج التي مارســـت الإرهاب فعـــلاً، والأحاديـــث الصحيحة كثـــيرة حول هـــذه الأوصاف التي تنطبق على الخـــوارج آنذاك، وتنطبق على جماعات اليوم ومن هذه الأحاديث، فقد روى الإمـــام البخاري -رحمه الله تعالى- كثيرًا من هذه الأحاديث:

«قوم يَقْـــرَءُون الْقُرْآنَ لَا يُجَـــاوِزُ حَنَاجِرَهُـــمْ»، أي: أنهم يكثرون مـــن قراءة القرآن الكريم بأفواههم، لكنـــه لا يتجاوز حناجرهم إلى عقولهم، فهـــم لا يفهمونه.

«يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْـــلَامِ» أي: أن أسلحتهم وجهادهم المزعوم موجّه للمســـلمين، فيكثرون من قتل أهل الإسلام بدعوى أنهم ارتدوا.

«وَيَدَعُـــونَ أَهْلَ الأَوْثَانِ» فرغم أنهم يدّعون الإســـلام والجهاد، إلا أنهم لا يقاتلون الكفار ذوي الكفر الصريح، رغم أنهم يستحلون دماء أهل القبلة.

أصبح هؤلاء واقعًـــا موجودًا في أمتنا العربية الإســـلامية، لكن كيف يمكـــن التعامل معهم؟

الحـــوار هو الأصل في التعامل مـــع كل أصحاب الآراء والأفكار، حتى لو كانت متطرفة، ولذلك رفض سيدنا علي رضي الله عنه قتال الخوارج رغم أنهم كفروه وهو الخليفة والإمام الشرعي، وقال قولته الشهيرة: «قومٌ رأوْا رأيًا فدعوهم وما رأوْا».

كما حدد سيدنا أمير المؤمنين علي رضي الله عنه متى يحل قتالهم بقوله: «بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لَا تَسْـــفكُوا دَمًا حَرَامًا, وتَقْطَعُوا سَبِيلًا أَوْ تَظْلمُوا ذمَّةً، فَإِنَّكُمْ إِنْ فَعَلْتُمْ فَقَدْ نَبَذْنَا إِلَيْكُمْ الْحرْبَ عَلَى سَـــوَاءٍ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ».

من هذا تظهر أهم العلامـــات المميزة للإرهاب, قتل الأبرياء من أطفال ونساء وشـــيوخ، وهي الصورة الطاغية اليوم على واقع كثير من المدن، والمتمثل في القصف العشوائي والمتعمد والعشرات بل المئات من الضحايا لا ذنب لهم، يســـقطون كل يوم وبأبشع طرق الإبادة الجماعية، المستعملة للبراميل المتفجرة، الصواريخ مستهدفة بذلك الأحياء السكنية والمستشـــفيات، والهدف من هذا تفريغ الأرض من أهلها، تحت ذريعة محاربة الإرهاب!!

وقطع طريق الأبرياء، وهو ما يمثله الحصار الجائر المفروض على كثير من المدن، وما يخلفه هذا الحصار من جرائم في حق الإنسانية، الموت جوعًا أو متأثرين بجروحهم لانعدام الدواء والمستلزمات الطبية نتيجة الحصار، بالإضافة إلى ظلم أهل الذمّة.

كما رأينا كيف تعامل أمير المؤمنين لما قتل الخوارج عبد الله بن خباب بن الأرت وزوجته، وحسب ما جاء في القصة، أنه قُتل عبد الله بن خباب على يد الخوارج، حيث كان طائفة منهم أقبلوا من البصرة إلى إخوانهم من أهل الكوفة، فلقوا عبد الله بن خباب ومعه زوجته، فسألوه من أنت؟ فردّ: أنا عبد الله بن خباب صاحب رسول الله ﷺ, فسألوه عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي, فأثنى عليهم خيرًا، فذبحوه فسال دمه في الماء، وقتلوا المرأة وهي حامل، وقتلهم أمير المؤمنين بناء عن حديث النبي ﷺ المتفق عليه : «لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ», وعن عليٍّ رضي الله عنه: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : «فَإِنَّ قَتْلَهُمْ أَجْرٌ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

ومن هذا يظهر كيف يمكن التعامل مع هؤلاء، ويصبح قتال هؤلاء الإرهابيين واجبًا، فهُم خطر على الأبرياء، بل خطر على الإسلام نفسه.

كل علامات الإرهاب الذي يستهدف الأبرياء في المدن العربية والإسلامية، واضحة وضوح شمس الظهيرة للمجتمع الدولي والمنظمات الإنسانية والحقوقية، رغم ذلك يلزمون الصمت المريب أم أن صمتهم هذا يعتبر موافقة على ما يحصل! لكنهم نسوا أنَّ الصمتَ في حرم القتل قتل.

خلاصة

بعدما استعرضنا ما يبطّن العالم الغربي في الخفاء والعلانية للعالم العربي الإسلامي، والتاريخ خير شاهد على كان يضمره ومازال، يجعلنا نتوقف ونفكر جيدًا كيف نتصرف، وذلك بوضع الإستراتجية المناسبة لتصدي لهذا الزحف على حساب وجودنا كدول عربية وإسلامية.

***

الخاتمة

رغم ما تتخبط فيه الأمة من مشـــاكل، هناك بريق أمل يلوح في الأفق، يرســـم أجمل صور للمستقبل، هذا المستقبل الذي يطمح له كل فرد منه هذه الأمة.

غـــير أن الطريق طويل وصعب، ولكن ليس بالمســـتحيل إذا كنا نقين هذا الدرب، وكيف نمشـــي عليه..

أمتنا ولدت عظيمة وســـتبقى كذلك، ونحن ســـنكون الوقود لها للنهوض من جديـــد، على الرغم من كل المعوقات التي تُزرع في طريقها، ســـواء كانت بأيدينا أو بأيدي غيرنا..

الطريق واضح ويبقى التنفيذ بأيدينا نحن أبناء هذه الأمة، رغم الصعوبات فنحن لها؛ لأننا جُبلنا على المقاومة والتحدي..

فهرس


الكنزي
ALKANZY